بماذا يتقدم المسلمون

العرفي

297:U75bA

العرفي، محمد سعيد .

297
U75bA

SEP
SEP
SEP 6 '62
SEP 6 '68

297
U75bA
Cl

بماذا يتقدم المسلمون؟

بقلم

محمد سعيد العرفي

خادم العلم في وادي الفرات

محاضرة ألقاها مساء يوم الإثنين ٤ ذي القعدة سنة ١٣٤٩

الموافق ٢٣ آذار (مارس) سنة ١٩٣١

في نادي جمعية الحضارة الاسلامية

الكائن في حارة الروم رقم ٣٠ من قسم الدرب الأحمر في قاهرة مصر

ويليها

مُوجز الأخلاق المحمّدية

محاضرة أخرى للمؤلف ألقيت في مدينة دير الزور

68345

« حقوق الطبع محفوظة »

١٣٥٣ هـ مطبعة ابن زيدون في دمشق ١٩٣٤ م

Copyright Author. Cat. Mar. 1949

AMERICAN UNIVERSITY
LIBRARY
OF BEIRUT

بسم الله الرحمن الرحيم

ايها السادة !

بماذا يتقدم المسلمون ؟

سؤال طالما كررته الالسن واكثر المسترشدون من تردده نظراً لما اصاب المسلمين اليوم من التأخر والاضمحلال ولقد اجاب العلماء المصلحون عنه مراراً عديدة غير اني اريد في محاضرتي هذه ان ادون منها مايرد على خاطري من الاجوبة بصورة مجملة كي اقوم بقسط من واجبي ولعلها تكون للامة ذكرى فان الذكرى تنفع المؤمنين .

كانت الازمان التي قبل الاسلام مفعمة بالاحزان وملأى بالويلات ومترعة بالنكبات لان الجهل كان مستحوذاً على الشعوب كلها والامم اجمعين فان الشعوبيين واعداء الاسلام جميعاً بذلوا الجهد كي يجدوا آثاراً علمية قبل الاسلام فلم يجدوا منها الا التافه البسيط فهذه الامة الفارسية ليس لها قبل الاسلام آثار علمية تستحق الذكر وهؤلاء اليونان ليست فلسفتهم الا عبارة عن رسائل وبعض كتب من الروايات والاساطير ، ولكن الدول الاوروبية التي بنيت على انقاضها

ـ ولها اليوم السيطرة العليا والقوة النافذة مادة ومعنى ـ تتمطق بالفلسفة اليونانية والتشريع الروماني في حين انهم يسمون تلك العصور العصور المظلمة ولو كان للعلم ضياء لأشرق في ذلك الظلام الحالك ولكن الله خص هذه المزية بدين الاسلام فشملت بركته العصور أتى قارنت ظهوره وسرت على مابعده بالأولى .

ظهر الدين الاسلامي في قلب جزيرة العرب في محل خلو من المدارس والمعاهد ، فانبعث ضياؤه في نفوس المؤمنين به واشرق على امم ذلك العصر كلها ، فبدت نهضة علمية عامة وابتدأت التآليف في ازدياد والعلم في نمو والمعارف في كثرة وشيوع والصناعات في رقي مستمر والاختراعات في تتابع متصل ، ولقد اصبحت الوثنية والديانات الاخرى في ضعف واضمحلال حتى خلا منها الحجاز وضعف امرها في اليمن والعراق والشام ومصر وتونس والجزائر ومراكش والسودان وفارس والهند وافغان بانتشار الاسلام الذي كان نعمة كبرى على العالمين .

لقد رفع الله شأن الدين الاسلامي على الاديان كافة بقوله تعالى : « ان الدين عند الله الاسلام ١٩ آل عمران » وكان صفوة الاديان وخلاصتها فختم الله به الشرايع لانه كمال وما بعد الكمال الا النقصان .

وبعبارة اصرح ان الشريعة الموسوية كانت مدرسة ابتدائية روعي فيها حال ذلك العصر وما بعده وكان مطمح النظر فيها العمل المادي لان النمو الكامل لايتم الا بقرون كثيرة حتى ان وعدها

يكون مادياً قال في الاصحاح الثامن من التثنية ١٧ وائلا تقول في قلبك قوتي وقدرة يدي اصطنعت لي هذه الثروة ١٨ بل اذكر الرب إلهك انه هو الذي يعطيك قوة لاصطناع الثروة اه والوعيد مثل الوعد مادي ايضاً ففي الاصحاح نفسه ١٩ وان نسيت الرب الهك وذهبت وراء آلهة اخرى وعبدتها وسجدت لها اشهد عليكم اليوم انكم تبيدون لامحالة اه فيخوفهم من الهلاك ويطمعهم في الحياة الدنيا ففي الاصحاح الحادي عشر من التثنية: لكي تكثر ايامك وايام اولادك على الارض ، وفي الاصحاح الثامن والعشرين من التثنية ٢ اذا سمعت لصوت الرب الهك ٣ مباركاً تكون في المدينة ومباركاً تكون في الحقل ٤ ومباركة تكون ثمرة بطنك وثمرة ارضك وثمرة بهائمك نتاج بقرك واناث غنمك ٥ مباركة تكون سلتك ومعجنك ، وفي بقية الاصحاح تهديد لمن لا يسمع لصوت الرب منه ٣٠ تخطب امرأة ورجل آخر يضطجع معها تبني بيتاً ولا تسكن فيه تغرس كرماً ولا تأكله ٢١ يذبح ثورك امام عينيك ولا تأكل منه يغتصب حمارك من امام وجهك ولا يرجع اليك تدفع غنمك الى اعدائك وليس لك مخلص الى آخر الاصحاح كآية ٢٥ يضربك الرب بقرح خبيث على الركبتين وعلى الساقين حتى لا تستطيع الشفاء من اسفل قدمك الى قمة رأسك اه وكله على هذا النمط .

وجعلت العقاب يسري من الآباء على الابناء ففي الاصحاح الخامس من التثنية ٩ لاني انا الرب إلهك إله غيور افتقد ذنوب الآباء في الابناء وفي الجيل الثالث والرابع من الذين يبغضونني .

واذا ظفرت بالاعداء قتلت حتى الاطفال والبهائم ففي الاصحاح الثاني من التثنية: ٢٤ وحرمنا من كل مدينة الرجال والنساء والاطفال لم نبق شارداً ، ومثل ذلك في آخر الاصحاح الحادي والعشرين من العدد ٣٥ فضربوه وبنيه وجميع قومه حتى لم يبق له شارد ، وفي الاصحاح الثالث عشر من التثنية ١٥ فضرباً تضرب سكان تلك المدينة بحد السيف وتحرمها بكل ما فيها مع بهائمها بحد السيف ١٦ تجمع كل امتعتها الى وسط ساحتها وتحرق بالنار المدينة وكل امتعتها كاملة للرب إلهك فتكون تلاً للابد لا تبنى بعد اه .

وشدد فيها بكثير من الاحكام كالنجاسة وتحريم قسم غير قليل من المأكول ، وعدم القرب من الحائض ، ولزوم القرابين عند ادنى امر وان معظم احكام اسفار الخروج واللاويين والعدد والتثنية يختص بالقرابين ، ورخص في اباحة نكاح الاقارب وتعدد الزوجات بغير حد ولا مقدار معين .

حتى اذا انتهى ذلك الامد نسخت بالشريعة العيسوية وهي المدرسة الثانوية وروعي فيها الخيال اكثر من الحقيقة والنظريات دون العمليات فلم تحرم شيئاً بل احلت كل ما كان محرماً على بني اسرائيل وكان جل ما اتت به من احكام التشريع :

طهارة النجاسة المادية : ليس مايدخل الفم ينجس الانسان بل ما يخرج من الفم هذا ينجس الانسان (الاصحاح الخامس عشر من انجيل متى)

والخضوع للدولة : اعطوا ما لقيصر لقيصر وما لله لله (٢٦ الاصحاح

العشرين من انجيل لوقا) .

والاستسلام للخصوم والقوة: ٣٩ من لطمك على خدك الايمن فحول له الآخر ايضاً ٤٠ ومن اراد ان يخاصمك ويأخذ ثوبك فاعطه الرداء ايضاً (الاصحاح الخامس من انجيل متى) .

ومنعت الطلاق بتاتاً حتى انها فرّقت بين الزوجين لزنا فانها لاتبيح لاحدهما الاقتران بآخر : كل من يطلق امرأته ويتزوج يزني وكل من يتزوج بمطلقة من رجل يزني (١٩ الاصحاح السابع عشر من انجيل لوقا) ومنعت الاقتران باكثر من واحدة مطلقاً غير ملتفتة الى الضرورات الطبيعية ، وابعدت الرجل عن ابيه وامه وعصبته وربطته بامرأته : ٦ من بدء الخليقة ذكراً وانثى خلقهما الله ٧ من اجل هذا يترك الرجل اباه وامه ويلتصق بامرأته (الاصحاح العاشر من انجيل مرقس) .

وصرفت الناس عن جمع الثروة وامرت بالتجرد والتقشف وحياة الفقر والبؤس ٢٥ مرور جمل من ثقب ابرة ايسر من ان يدخل غني الى ملكوت الله (الاصحاح العاشر من انجيل مرقس) .

فمن الضروري لم تكن لتعيش طويلا لانها ليست صالحة لاكثر من خمسة عصور كانت فترة في اكثر الامم .

حتى جاءت الشريعة الاسلامية وهي المدرسة العالية فجمعت بين العملي والنظري واتت بما يلائم العصور كلها فهي صالحة لجميع الازمان ولذلك صحّ ان تكون خاتمة الشرائع وانها لايجوز عليها نسخ ولا تبديل نعم انها كذلك فهي لم تشدد في المأكولات كاليهود ولم تتساهل

كالنصارى وانما وقفت نقطة وسط فاباحت كل مافيه منفعة وحرمت كل انواع المضار والخبائث قال تعالى : ويحرم عليهم الخبائث ١٥٧ ـ سورة الأعراف .

وجعلت الجزاء مقتصراً على صاحب الذنب وحده قال الله تعالى . ولا تكسب كل نفس الا عليها ولا تزر وازرة وزر اخرى ١٦٤ ـ سورة الانعام . وقال : كل امرئ بما كسب رهين ٢١ ـ سورة الطور . وقال : كل نفس بما كسبت رهينة ٢٨ ـ سورة المدثر .

وعاملت كل من اظهر الاسلام معاملة العريق فيه على السواء في الحقوق قال تعالى : ولا تقولوا لمن القى اليكم السلام لست مؤمناً تبتغون عرض الحياة الدنيا ٩٤ ـ سورة النساء .

ولم تبح الحرب الا دفاعاً عن دين الله لانها لم تكره على الدين احداً قال تعالى : لا اكراه في الدين قد تبين الرشد من الغي ٢٥٦ ـ سورة البقرة . وحرمت قتل الاطفال والشيوخ والنساء والنساك والرهبان إلا من اشترك في الحرب فعلاً واضر بالمسلمين ولم يلق سلاحه ، ولم تجز ذبح البهائم لغير الاكل اصلاً ولا اتلاف الاموال لانه تبذير قال تعالى : ولا تبذر تبذيراً ٢٦ ان المبذرين كانوا اخوان الشياطين وكان الشيطان لربه كفوراً ٢٧ ـ سورة الاسراء .

واباحت للمظلوم ان يأخذ ثاره بغير تجاوز قال تعالى : فمن اعتدى عليكم فاعتدوا عليه بمثل ما اعتدى عليكم ١٩٤ ـ سورة البقرة . لكنه امر بالعفو وصفاء النية لانه جعل الجزاء بمثابة علاج ضروري ومجازاة

النفوس الصغيرة بالعقاب والنفوس الكبيرة بالعفو « فما قتل الاحرار كالعفو عنهم» وقال تعالى : ادفع بالتي هي احسن فاذا الذي بينك وبينه عداوة كأنه ولي حميم ٣٤ وما يلقاها الا الذين صبروا وما يلقاها الا ذو حظ عظيم ٣٥ ـ سورة فصلت ، اشارة الى ان هذه تربية عالية لايصل اليها الا ارباب النفوس الكبيرة فقلما تسمح لامرئ نفسه ان يعتبر عدوه صديقاً من اقاربه الا اذا كان من عظماء البشر وهذا ماارادہ الله للمؤمنين

ولم تبح للرجل ان يتخذ الزواج لعبة او شهوة يقضي بها لبانته كاليهود ، ولم تحجر عليه عند الحاجة فتلزمه الزواج بامرأة واحدة فقط كالنصارى لان ذلك يكون سبباً لضعف التناسل ووسيلة للفساد اذا قلّ الرجال بسبب حرب او نحوه ولكنها اباحت اكثر من واحدة لسبب قال تعالى فان خفتم ألاّ تعدلوا فواحدة ٣ ـ سورة النساء وقال تعالى «ولن تستطيعوا ان تعدلوا بين النساء ولو حرصتم فلا تميلوا كل الميل فتذروها كالمعلقة وان تصبروا وتتقوا فان الله كان غفوراً رحيما » ١٢٩ ـ سورة النساء ، مع انه قال في اول السورة نفسها فانكحوا ما طاب لكم من النساء مثنى وثلاث ورباع فدل على ان التزوج باكثر من واحدة محمول على الحاجة والضرورة التي تدعو اليه لان حقيقة العدل غير متيسرة لكل احد ـ كما علمت ـ فاذن ان الزيادة على الواحدة ضرورة والضرورة تقدر بقدرها ، وقد اثبتت نتائج الحرب الكبرى ان الزواج باكثر من واحدة ضروري لتلافي النقصان ولمنع شيوع الفساد بين النساء اللاتي فقدن ازواجهن او الآنسات اللاتي لايجدن قريناً ، وبقاء هذا العدد الوافر بلا

زواج بصبح بؤرة فساد ، وهذا هو سر اباحة الشريعة الاسلامية اكثر من واحدة ولكن الى اربعة لان المرأة تصبر على فراق زوجها في محل اقامتها ثلاثة ايام وما زاد على ذلك فهو اجحاف وظلم .

ومثل ذلك بقية احكامها فانها معتدلة خالية من الافراط وبعيدة عن التفريط لانها الوسط وما بعد التوسط الا الميل والانحراف .

فعلى هذا يجوز لنا ان نحكم بلا تردد بأن الشريعة الاسلامية ، ايدها الله ، هي المدرسة العالية للانسانية ، كما قدمنا ، وانها هي الخالدة مادامت حياة وما دام زمان .

اذن تبين لنا السر في ان الشريعة الاسلامية لا يطرأ عليها نسخ ولا تبديل وهي الشريعة المؤيدة من جانب الحق تعالى ، وهي الدين الذي اكمله الله تعالى واختاره وارتضاه لانها ما آمن بها ضعيف الا قوي ولا ذليل الا عز ولا جهول الا علم ولا تبعت احكامها امة من الامم الا عظم شأنها وارتفعت كلمتها وعلا قدرها واصبحت ذات حول وطول والتاريخ شاهد عدل على هذا .

ولا عجب فان المعروف عندنا وعند غيرنا والمشاهد عيانا لا اختلاف فيه ان خريجي المدارس العالية هم قادة الرأي العام والمسيطرون على شؤون الحكم والادارة والقابضون على زمام الامور عند جميع الامم ولدى الدول كافة اذا وجدوا ، وبما ان المسلمين دينهم هو المدرسة العالية للانسانية فيجب ان يكونوا في تقدم مستمر والا كانوا فتنة ومصيبة على الدين حذرنا الله منها بقوله « ربنا لا تجعلنا فتنة للذين كفروا » ٥ ـ

سورة الممتحنة .

فعليه يجب ان نبحث نحن المسلمين عن سبب تقهقرنا وضعف امرنا حتى نزيله او نعالجه فنتقدم من سبقنا من الامم الذين كانوا متأخرين عن سير اسلافنا بمراحل .

لاينكر التاريخ ان المسلمين قهروا العالم اجمع وحكموا الارض شرقاً وغربا قرونا كثيرة وكانت مقدرات الامم والشعوب تقرر وتقدّر في صروح ملوكه وامرائه وليس المسلمون اليوم بأضعف اجساماً من اسلافهم ولا باوهى عدة ولا باقل عدداً فلم يكن تأخرهم الا بسبب عدم تمسكهم بدينهم الذي اصبح المسلم يكتفي بمجرد الانتماء اليه بلاعمل اصلا ، او عمل في الالسنة لايتجاوز الحناجر ، او في الاعضاء الظاهرة لايصل الى القلوب ، ولا يخفى ان هذا لايكفي لان يربطنا بالماضي بل يجوز ان يكون سبباً قوياً في ابطال مدعانا بانا من سلالة اولئك الاسلاف الطاهرين الذين لم تقف في وجوههم قوة الا ارتدت مدحورة وكانوا هم الفائزين .

نعم انه لايكفي لان الثعلب لايكون ولداً للاسد وانما ولده الشبل الباسل الوارث عن ابيه بطشه وشجاعته وشهامته وعلى هذا فاني لا ادري هل نحن ادعياء حتى في أنسابنا ؟ ام ان المسخ المعنوي حصل في قلوبنا فمسخنا قردة وخنازير ؟ لان اعظم مميزات القرد الجبن والخور والعهارة واقوى مميزات الخنزير قلة الحياء وفقد الغيرة وكلاهما قد اتصف به عدد غير قليل من المسلمين

يقولون ان التاريخ يعيد نفسه والوقائع تتكرر وهذا هو الصواب فقد انبأتنا كتب السير والتواريخ بل اخبر القرآن ان الظفر لايكون الا مع الصفاء والايمان الكامل ، فهذه بدر الكبرى كان المسلمون فيها قليلين عدتهم ثلاثة عشر وثلثمائة رجل و كان الاربعة والخمسة يعتقبون البعير الواحد وليس عندهم الا فرسان وامامهم قريش جاءت بقضها وقضيضها فلم تكن الا ساعة من نهار حتى تمزق شمل الكفر وبدا نجم الاسلام في الكون ساطعاً واليه الاشارة بقول الله تعالى : ولقد نصركم الله ببدر وانتم اذلة فاتقوا الله لعلكم تشكرون - ١٢٣ - سورة آل عمران ولما كان المسلمون يوم حنين كثيرين يزيدون على اثني عشر الفا ولكن كان فيهم المنافقون والمؤلفة قلوبهم فلم تختلط الرماح حتى هربوا ولم يبق الا رسول الله (ﷺ) ومعه العباس بن عبد المطلب وابنه الفضل وعلي بن ابي طالب وابنا عمه ربيعة بن الحارث وابو سفيان بن الحارث بن عبد المطلب وابنه جعفر وعتبة بن ابي لهب واخوه ، ويروى بدله اسامة بن زيد وفي رواية اخرى قثم ابن العباس ، ثم امر رسول الله (ﷺ) العباس ان ينادي يا انصار الله يا اصحاب سورة البقرة وكان العباس جهوري الصوت فلما ناداهم اجابوا ومنهم من اخذ سلاحه وترك راحلته لانها لم تطاوعه على العودة فلما بلغوا ثلثمائة - رواية ابن هشام مائة - مزقوا شمل هوازن وكانت الوفاً كثيرة ، قال تعالى ويوم حنين اذ أعجبتكم كثرتكم فلم تغن عنكم شيئاً وضاقت عليكم الارض بما رحبت ثم وليتم مدبرين - ٢٥ - ثم انزل الله سكينته على رسوله وعلى المؤمنين وانزل جنوداً لم تروها وعذب الذين

كفروا وذلك جزاء الكافرين - ٢٦ - سورة التوبة .

فاذا كانت الكثرة المغشوشة لم تحصل منها فائدة في زمن رسول الله المؤيد بالنصر المبعوث رحمة للعالمين فهي في زماننا لاتجدي نفعاً بالاولى ولعل هذا هو سر ان ثلثمائة مليون مسلم معظمهم تحت سلطة اجنبية حساً او معنى .

فعلينا اذن ان نعتبر بهاتين الواقعتين ولا اسهل من استخلاص الصالح من غيره في عصرنا هذا الذي اصبح الفسق فيه مفخرة والفجور مكرمة والالحاد عزاً وسؤدداً وان الله يقول : كل حزب بما لديهم فرحون - ٥٣ - سورة المؤمنون ، وهـذا هو الواقع والمشاهد وانا بحمد الله في عصر قد اصبحت فيه الجمعيات الاسلامية في نمو وانتشار فماذا على المسلمين لو اعانوها وامدوها حتى تتمكن من القيام باعمال عظيمة فتصبح رمزاً للاجتماع والتعارف والتآلف والتعاون فان المسلمين لايتقدمون الا متى سلكوا طريق صدر الاسلام وعملوا باحكامه وفهموا ان الاسلام ليس عبارة عن الانقياد الظاهري فقط فان مثل ذلك كجسد لاروح فيه ولا عن مجرد التصديق بلا عمـل فيكون كروح بلا جسد لاتنفع ولا تفيد بل ان الاسلام عبارة عن التصديق وتأييده بالعمل .

اذا كان المتكلمون نازعوا المحدثين في هذه المسألة وقالوا ان الايمان المنجي عبارة عن التصديق بالقلب فذلك يتعلق بالله تعالى وليس من شأن العبد ان يتجاوز حده ويتفلسف في امور اختص الله نفسه بهـا وان كنا نقول لمثل هؤلاء ماقال عيسى عليه السلام كما حكاه الله عنه

في الفرقان : إن تعذبهم فانهم عبادك وان تغفر لهم فانك انت العزيز الحكيم - ١١٨ - سورة المائدة . وانما نحن مكلفون بالظاهر الذي نحكم به فمن ادعى الاسلام ولم يعمل بشيء من احكامه فانه مستهزئ بالدين او غير معتقد بانه على حق وإلا لانصاع للأوامر الالهية وابتعد عن المنهيات فان مجرد الدعوى لاقيمة لها اذا لم تدعم بالادلة القاطعة والبراهين الناصعة .

لقد شدد الشارع في اتباع الاحكام الظاهرة الى درجة ان حكم بالكفر على تارك الصلاة فقد روى الامام احمد والترمذي والنسائي وابن ماجة والحاكم وابن حبان عن بريدة قال قال رسول الله (ﷺ) « العهد الذي بيننا وبينهم الصلاة فمن تركها فقد كفر » ورواية ابن ماجة عن انس : ليس بين العبد وبين الشرك الا ترك الصلاة فمن تركها فقد اشرك . وهذا مادعا احمد بن حنبل الى افتائه بقتل تارك الصلاة كفراً فلا يصلى عليه ولا يدفن في مقابر المسلمين وافتى الشافعية بقتل تارك الصلاة حداً اي عقوبة له وردعاً لغيره ممن يهزؤون بالدين الاسلامي فيزعمون انهم مؤمنون به ولكنهم لايتبعون تعاليمه ولا يقيمون اركانه واستدلوا بحديث : أُمرت ان اقاتل الناس حتى يشهدوا ان لااله الا الله واني رسول الله فاذا قالوها عصموا مني دماءهم واموالهم الا بحقها وحسابهم على الله» رواه البخاري ومسلم واصحاب السنن الاربع . فجعلوا كلمة التوحيد وحدها عاصمة للدماء والاموال .

ان من اعظم اسباب تقدم المسلمين حتى يتبوّؤا المقام الذي كان لاسلافهم من سيادة على العالم ورفعة على جميع الامم وتقدم على الشعوب

كافة اخلاقاً وعلماً وصناعة وزراعة وتجارة ان تتمسك قادتهم بالشريعة الاسلامية التي جاء بها محمد رسول الله (ﷺ) اما اذا لبثوا يقدسون الاشخاص الذين يتمشدقون لهم بالفاظ مبهرجة ويكررون صلاحا واصلاحا ووطناً ووطنية ليقال انهم غيورون على الدين مصلحون للامة محبون لبلادهم في حين ان اكثرهم لم يقم بما اوجب الله عليه من الفرائض حتى كأنه لاعلاقة له بالدين و كثير من اغنيائهم لايعرف الزكاة ولم ينفق في سبيل الله او الامة درهماً واحداً . ومنهم من يجمع اموال الناس بطريق الاعانة ونحوها ليبذرها على شهواته ورغبة هواه ومطامعه الشخصية ويجبن عند كل قراع جدي ومصادمة عنيفة حقيقية ويكثر من المشاغبات الفارغة ويتحدى النزاع الصوري فلا يرجى من مثل هؤلاء كلهم خير أصلاً ولا يرتقب على يدهم امل بالظفر والنجاح .

لست من هذا اريد الطعن بشخص معين ، كلا والله ، وانما اريد ان اصرح عن رأيي الحقيقي - ولعل الكثير من المصلحين يوافقونني - من ان تقدم المسلمين لايتم لهم او لايكون الا متى تمسكوا بدينهم الحقيقي باعتبار الدين على حسب ماعرفوه وهو : وضع إلهي سائق لذوي العقول السليمة باختيارهم المحمود الى ماهو خير لهم بالذات ، فان المصلي اذا لم تنهه صلاته عن الفحشاء والمنكر وان المسلم اذا ركن لعدو دينه مثل ركونه لأخيه المؤمن فمعناه ان صلاة الأول عادة وان ايمان الثاني لم يجاوز حنجرته فلا يدري من الدين شيئاً ولهذا فان اول اسباب تقدم المسلمين فهمهم الدين على الصورة التي ذكرناها واعراضهم عن القشور التي لاعلاقة لها

بحقيقة الدين فلا يقفون عند الطقوس او صورة الالفاظ او هيأة الاعمال كما حصل في عصرنا اليوم فيرون الرجل صالحاً بمجرد صلاته وان كان شرس الاخلاق سيئ الطباع مفسداً جباناً ، مرجفاً هادماً للدين ناصراً لراية اعدائه . وهذا ناشئ من جهل الذين تولوا زعامة العلم وهم جهلاء فجعلوا الدين بهذه الكيفية المؤلمة حتى وصل الامر ان اصبحت الحيلة حكماً شرعياً . وبالغ كثير منهم في حصر الدين بصورة ظاهرة فلا يكترث بالاخلاق وحسن المعاملة فالمواظب على المسجد وهيأة الاسلام رجل صالح وان كان عونا لاعداء الدين وعيناً لهم يتطلعون منها على اعمال المؤمنين ونواياهم ومنهم من يبذل الجهد في الارجاف واظهار المؤمن ناقص العقل عديم المقدرة غير كفءٍ لادارة شؤونه وبذلك مهدوا للاوروبيين ان يستعمروا ديارنا ويستعبدونا ومع هذا فانا لازلنا نقدس اولئك الاشخاص الضارين الضالين ونحترمهم ونعدهم قادة للدين ماداموا بهذا الزي لانا لانعرف العالم الا بزيه فمتى كور العمامة ولبس الجبة واطال اللحية فانه النحرير وان كان جهولا وهذا مادعا الى تمزيق الاسلام بفهم الدين على خلاف حقيقته فتم بذلك ما اخبر به رسول الله (ﷺ) بقوله : (ان الله لا يقبض العلم انتزاعاً ينتزعه من الناس ولكن يقبض العلم بقبض العلماء حتى اذا لم يُبقِ عالماً اتخذ الناس رؤوسا جهالا فسئلوا فأفتوا بغير علم فضلوا واضلوا) رواه احمد والبخاري ومسلم والترمذي وابن ماجة من حديث ابن عمر .

وهذه فئة غير قليلة قد انتشرت سمومها وتعاليمها المعوجة حتى انه ليشق على العالم المصلح ان يقوّم المخالف صراحةً لكتاب الله تعالى وسنة

رسوله لان هذه الآراء قد دُونت واصبحت شريعة لايجوز العمل بغيرها ولا سيما ان مرور الايام يمنح الباطل مكانة الحق ويجعل العادة شرعةً احكامها واجبة الاتباع. ××××

على ان مما لاجدال فيه لدى المقلدين الجامدين ان الاعراض عن كتاب الله تعالى وعدم العمل بما فيه حتم لازم اذا خالف قول فقيه الله اعلم به حتى صار حفظ الله لكتابه عبثاً لافائدة فيه لأن القرآن بنظرهم محصور للغناء او للتبرك بتلاوته وحمله تميمة او للقراءة على القبور يتعيش به فريق من الناس. وان هذا الفريق بعضده فريق من المنتمين للعلم عن غير نية حسنة فيروجون تلك الضلالات ويسعفون اصحابها بهدم صرح الدين وانتهاك حرمته وهؤلاء الذين قال فيهم رسول الله (ﷺ):

« ان اخوف ما اخاف عليكم كل منافق عليم اللسان » رواه احمد والطبراني

فاول اسباب التقدم استعمال العقل ومطالبة اهل العلم بالدليل ومعرفة حكمة التشريع حتى يميز الخرافة من الحكم الشرعي فيرجع لكتاب الله والسنة النبوية عند النزاع مع اعتبار الدين امراً نافعاً يكفل للمتمسك به سعادتي الدنيا والآخرة.

من المعلوم ان الحرب لاينظر فيها الى كثرة الجيوش والمعدات ولكن ينظر فيها الى القائد الذي يدور على اخلاصه الظفر وعدمه فسببُ تقهقر المسلمين عدُّهم كلَّ جهول عالما نحريراً مادام متزيياً بالعلم - كما قدمنا - وميلهم الى كل فاسق فاجر يتبعون امره ويصدرون عن رأيه او يجعلونه

الزعيم المطاع او الآمر الناهي مع انه لادين له ولا وطن له وانما هو مثل النائحة تبيع دموع عينيها لاصحاب المصيبة بدراهم معدودة . لكن اصحاب المصيبة خير منا واعقل لانهم يعلمون ان النائحة تبكي لاجل الاجرة واما نحن فقد انعكست مدار كنا والتبس علينا الخيال بالحقيقة فحكمنا بحقيقة الجميع وصرنا نركن الى كل متقلب لدغ الامة من جحر واحد مرات عديدة فلم نرتدع من اعماله القبيحة ولم نعتبر بماضيه السيئ ظناً منا ان هذا من سلامة النية وانما هو بلاهة وحماقة ومعاندة للدين ومخالفة لعمل الصحابة في المرتدين ومانعي الزكاة لكنا لما عطلنا نعمة العقل والتفكير اصبحنا نتبع كل ناعق ونسير خلف كل ماش ونحترمه خصوصاً اذا رأينا الصحف والمجلات تمجد امرأ او تبجل امرءاً فانا نقدسه مع علمنا بان الجرائد في البلدان الاسلامية والعربية عامة تحت سلطة الاعداء تستمد من نفوذهم او تخضع الى قوتهم او تود استمالتهم ورضاءهم والبعض يتبع الدراهم قلة و كثرة . اما الجرائد الاسلامية الصادقة فانها بسيطة جداً لاتجد لها مشتركا فضلا عن المساعد و كثير من المشتركين لايدفع الاشتراك لأنه يزعم ان له منته على الجريدة بقبوله اياها يطالع فيها وهي جريدة اسلامية .

اذا قلنا بلزوم التمسك بالعبادة فانا لانعني الاكتفاء بصلاته وصومه فقط - كما قدمنا - كلا فان كثيراً من اعداء الاسلام دخلوا من هذه الطريق وافسدوا تلك التعاليم القيمة فافترق المسلمون شيعاً واحزاباً وجعلوا الاختلاف المذهبي يزيد على الاختلاف الديني ومن قرأ التاريخ والنزاع القائم بين الشافعية وبين الحنفية ثم بين الحنابلة وبين المالكية فالشافعية

وما سفكت في سبيل ذلك من الدماء الغزيرة يرى العجب ولكن عقلاء المتأخرين اخمدوا جذوة هذه النار المهلكة . وابتدأ التفاهم الحسن يسير في اكثر بلاد المسلمين بصورة بطيئة تدريجية وغالبه في الاقوال دون الافعال . ومع هذا فانه لا يزال بشدة وعنف موجوداً بكثرة في المحلات المنقطعة والبعيدة عن جزيرة العرب محل ظهور الاسلام . اما النزاع بين الشافعية وبين الزيدية ـ وكلاهما يقول بخلافة الخلفاء الاربعة الراشدين التي يدور معظم النزاع عليها ـ فلقد انتج ويلات على اليمن لا يزال اليمانيون يتجرعون مرارتها حتى الآن ، واما بين السنة وبين الشيعة فحدث عن النزاع ولا حرج وغلاة الطرفين يرون ان اليهود والنصارى اقرب اليهم من المذهب المخالف ولو عددت ما سمعته اذناي من الاقوال لما استطاعت العقول النيرة ان تصبر على شناعته وكراهته .

ليس من مصلحة الاسلام ان اذيع على منبر الخطابة هذه الانباء التي تسيء سمعة الاسلام ولكنها الواقع والملموس فليس من المعقول ان يكتم المريض امره ولا يعالج نفسه حتى يلقى حتفه وهو متجلد صابر على الآلام والويلات ، فما ذكري لها الا لكي تزال هذه الجوابح التي اوجدها اعداء الاسلام عندما دخلوا فيه واحتلوا مكاناً رفيعاً بكثرة صلاتهم التي يحقر احدنا صلاته بجنبها ، وعلى هذا فلا نكتفي بمجرد الصلاة بل لابد ان تكون الصلاة موصلة الى كمال الاخلاق وعلو الهمة والا كانت عادة تخص الجسم كحركات ارباب الرياضة لم تصل الى قلبه لانه لم يفكر فيما يتلوه من القرآن ولو انه ادرك ماترمي اليه الصلاة وامعن النظر فيما يدل

عليه كلام الله تعالى لأصاب الهدف ووصل الى المقصود وهو صلاح نفسه بالاستقامة والاخلاق الحسنة .

فرض الله الصلاة على كل مسلم ومسلمة وجعل لها مقياساً يعرف به الصادق من الكاذب هو قول الله تعالى « ان الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر » ٤٥ ـ سورة العنكبوت ، فمن كان مرتكباً للفحشاء والمنكر وهو مصلٍّ فقد اتخذ صلاته شبكة يخدع بها الناس ويصطادهم ليقال عنه رجل صالح عابد مصلٍّ فيعتمدون عليه اويقدمونه ولا تثبت عليه جريمة بسرعة ـ اذا سولت له نفسه الخبيثة فعلها ـ فكانت صلاته مبعدة له عن الله تعالى وهذا معنى الحديث الذي رواه الطبراني عن ابن عباس قال قال رسول الله (ﷺ) : من لم تنهه صلاته عن الفحشاء والمنكر لم يزدد من الله الا بعداً . اما الذي يتظاهر بكمال الاخلاق وهو تارك للصلاة فهو ثعلب يخدع الناس بلين حديثه او انه ثعبان لين الملمس وفي اسنانه الموت والعطب ولو كانت اخلاقه عن ايمان بقواعد الاسلام الذي يزعم الانتماء اليه لصدق باحكامه ولعمل بمقتضاها ولما ترك اعظم الاركان كالصلاة مثلا ولهذا جازلنا ان نعتبره مخادعاً كالاول وكلاهما مذموم غير صادق في دعواه فان المؤمن الصادق من تبع احكام الشرع الشريف على الوجه الصحيح

على ان هذا لايمنعنا من ان نصرح ونقول : ان تمشدق بعض المنتسبين للعلم باعتبار التشديد اصلاً من اصول الدين ، واعتبار العادات شرعاً لايجوز الخروج عليه مع التزام التعصب للمذهب كان سبباً في ترك كثير من الناس للصلاة نظراً لما يتفلسف به اولائك الجاهلون بشرع الله واحكامه

من لزوم الضغط والتضييق على عباد الله تعالى خلاف قول الله تعالى «يريد الله بكم اليسر ولا يريد بكم العسر» ١٨٥ - سورة البقرة، وخلاف قول رسول الله (ﷺ): يسروا ولا تعسروا وبشروا ولا تنفروا» رواه احمد والبخاري ومسلم والنسائي من حديث انس

اننا لو حللنا الامور تحليلا علمياً وشئنا التكلم بصراحة لقلنا ان البلاء كله نشأ من عدم الايمان لان للايمان ضياء اذا اشرق على القلب سرى الى جميع البدن فحفت بصاحبه الكرامة وهابه كل خلق الله وعظموه وبجلوه واحترموه وذلوا امامه ووهنت قواهم عند مجابهتهم له بخصام وهذا هو سر تقدم المسلمين في الصدر الاول وقهرهم كسرى وقيصر حتى كان بعض اعدائهم يعتقدون انهم لا يموتون فكانوا بقوة صغيرة يصطدمون مع اعظم جيش جرار ثم لا يلبث ذلك الجيش ان يتمزق في هجومهم عليه ذلك الهجوم المقرون مادة ومعنى بقول « الله اكبر » ومع هذا فكان التعاون مع بعضهم وتبادل الثقة بينهم له الاثر الفعال في تقدمهم فتحققوا بحديث « المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضا » رواه البخاري وذلك لان التعاون كان حاصلا عن قوة ايمان وتصديق لقول الله تعالى « انما المؤمنون اخوة » ١٠ سورة الحجرات فتحققوا في الآية وعملوا بها ولا يخفى ان المجموعة اذا كانت من شعر يصعب او يمتنع قطعها اما الواحد ولو كان قضيب حديد فيسهل كسره

روى البخاري عن انس قال قال رسول الله (ﷺ): « لا يؤمن احدكم حتى اكون احب اليه من والده وولده والناس اجمعين » ورواية

ابن خزيمة ومسلم في صحيحهما « لا يؤمن احدكم حتى اكون احب اليه من اهله وماله » وفي صحيح البخاري ان عمر بن الخطاب قال للنبي (ﷺ) لانت يارسول الله احب الي من كل شيء الا من نفسي فقال رسول الله ﷺ لا والذي نفسي بيده حتى اكون احب اليك من نفسك . فقال عمر : فانك الآن والله احب الي من نفسي فقال : الآن ياعمر . اه

لاشك في ان هذه علامة الايمان الصادق ولكن اروني شخصاً بذل قطرة من دمه في سبيل الاسلام بل اخبروني عن اسم امرئ حبس ساعات معدودة في سبيل ذوده عن الدين مع انا لو دققنا سجلات المحاكم ودفاتر السجون لرأينا الألوف المؤلفة حبست السنين الطوال بداعي غيرة احدهم على امرأته او اخته او احدى قريباته او معشوقته ، ولو ان ذلك السجين او غيره اهان احدٌ دينه اوشتم نبيه لقال ان فوقي دولة حاكمة ماذا افعل انا؟ اما لما شتمت امرأته او معشوقته او قريبته او صديقته فانه ينسى الدولة الحاكمة ولا يخطر على باله عقابها فيصول ويجول و يهجم على خصمه ويفتك به بدون تفكير في العواقب ولا اعمال روية مع احتمال ان الامر من اساسه لا اصل له ولا مستند وانما هو مجرد ظن او قيل تقول به خصماؤه او لطخه به اعداؤه لان العقل والتفكر والتأني لا تأتيه الا عندما يهان الدين وعندئذ يتزايد الوهم عليه حتى لا يكفيه ان تخور عزيمته بل لا يرضى الا ان يثبط همة غيره اذا همّ ان يغار لدينه فيقول له : مالك ولهذه الامور ؟ اتريد ان تعدلها وحدك ؟

ياقوم ! ما الامة الاسلامية الا مجموعة وحدات فاذا تخلفت كل واحدة

عن اداء واجبها فقد تخلى المسلمون عن ايفاء الواجب حقه وهو من اسرار تأخرنا وانحلالنا . على ان خير سلم للرقي نصعد اليه لنخرج من هذه الهوة التي وقعنا فيها معالجة المرض الذي اصاب الامة منذ مئات السنين فازمن واستفحل وهو مرض كراهية الموت حتى طمع فينا الاعداء ولم يحسبوا لنا حسابا بل تجرؤوا فملكوا غالب الاقطار الاسلامية واذلوا اهلها وتحكموا فيهم كما تشاء اهواؤهم ومطامعهم فلم تجدنا الكثرة نفعاً والى هذا يشير الحديث الذي رواه ابو داود في سننه عن ثوبان قال قال رسول الله (ﷺ):

«يوشك الامم ان تداعى عليكم تداعي الاكلة الى قصعتها ـ فقال قائل : ومن قلة نحن يومئذ ؟ قال : بل انتم يومئذ كثير ولكنكم غثاء كغثاء السيل ولينزعنّ الله من صدور عدوكم المهابة منكم وليقذفن في قلوبكم الوهن قال قائل : وما الوهن يارسول الله ؟ قال : حب الدنيا و كراهية الموت »

وقد اصبحنا في هذا العصر الذي صار حب الحياة فيه سبب كل ويل فصب على رؤوسنا كل بلاء حتى كأنا لسنا الذين يؤمنون بكتاب الله تعالى القائل :

فاذا جاء اجلهم لايستأخرون ساعة ولا يستقدمون ـ ٦١ ـ سورة النحل ، والقائل : قل ان الموت الذي تفرون منه فانه ملاقيكم ـ ٨ ـ سورة الجمعة ، والقائل : كل نفس ذائقة الموت ـ ١٨٥ ـ سورة آل عمران .

فلا ريب ان الذي اخرنا عن السير في الطريق التي سلكها اسلافنا ففازوا وسادوا العالم لم يكن الا كراهية الموت التي لم نستفد منها الا الكوارث والذلة والاستعباد .

مما لامراء فيه ان الكون دائر بين اثبات ونفي او بين موجب وسالب ووجود النقيضين متعاقبين غير مرتفعين امر ضروري لنظام العالم لان صيرورة العالم كله امة واحدة غير ممكن عادة ولهذا كان المنافقون في وسط الصحابة الكرام بمثابة كنيف للدار ومن هذا القبيل وجود ابليس بين الملائكة والسامري ضمن اتباع موسى عليه السلام ويهوذا الاسخريوطي وسط حواريي عيسى عليه السلام، فاذا احب فريق الموت فلا بد ان يكرهه من يعارضهم او يقف تجاههم وتلك سنة الله لازالت ثابتة لم تتغير ولم يطرأ عليها تبديل وحالنا خير شاهد على هذا فانا لما كرهنا الموت احبته اعداؤنا فضعفنا وقووا وهبطنا وصعدوا .

ان المسلمين الذين اذلوا الرومان والفرس ومن يساعفهما من العرب لم يعتمدوا في جهادهم الا على ايمانهم بانهم على حق وبينة من الامر فباعوا انفسهم في سبيل الله تعالى واحبوا الموت فكرهته اعداؤهم والا فان مما لانزاع فيه لدى المؤرخين ان المسلمين في وصولهم الى هذا المجد الرفيع والملك العظيم لم يركنوا الى شدة الناس وحدها ولم يغلوا قوة غيرهم بانتظام العدة ولا بكثرة الجيوش فان جيش المسلمين في البلاد الشامية كان خمساً وعشرين الفاً والذي في العراق كان اثنى عشر الفاً ويساعد بعضهم بعضاً في حين ان جيش قيصر لايقل عن خمسمائة الف وجيش كسرى مثله او اكثر منه وكانت عدة الجيش الذي فتح مصر ثمانية آلاف مسلم وهذا العدد الضئيل تجاه العدد العظيم في بلدانه المستحكمة اسوارها وقلاعها واهلها عارفون بطرقها ومداخلها ومسالكها لم يدعه الا برهة يسيرة حتى

صرعه وغلبه ، يجب ان يكون لنا خير مثل يشوقنا للرجوع الى دين الله والتمسك به والعمل باحكامه فان الصحابة واتباعهم كانوا يومئذ غرباء الديار ولا يعرفون عنها شيئاً وكان سلاحهم اضعف من سلاح اعدائهم ولكن عدتهم الحقيقية اقوى وامتن واصلب واعظم وافخم وهي الايمان الصادق الثابت باعمالهم الصالحة وطاعتهم لله ولرسوله فقضوا بتلك العدة على كسرى وملكه وقوضوا ملك قيصر ولم يسع المقوقس الا الخضوع لامرهم بعد ان كان كل واحد من الثلاثة جازماً ومصمماً على محو الاسلام واحتقاره ولولا مصادمتهم به لما كان المسلمون ليفتحوا حربا ولكن اعداء الاسلام حالوا دون انتشار كلمة الله وحاربوها بكل قواهم فما وسع المسلمين الا امتشاق الحسام دفاعاً عن دين الله وانتصاراً له فكان النصر لحزب الله ولا يزال كذلك الى منتهى الابد .

ان استحصال هذه العدة - عدة الايمان والتقوى والعمل - ليس بالامر العسير ولا يحق لمسلم ان يقول : لو وجدت اعوانا لفعلت وصنعت فان ذلك علامة الكسل المضاعف اعني الأماني والاعتماد على الغير وهما منافيان مغايران لتعاليم الدين لان الاسلام حث على وجوب العمل وان يقوم كل واحد من المنتمين اليه ذكراً كان او انثى باداء قسطه من الواجب غير ملتفت الى غيره قام ذلك الغير بما عليه او لم يقم لان العامل القائم بواجبه لا يخلو اما ان يتوفق فينال عز الدنيا والآخرة واما ان تحصل له نكبة فينال الاجر من الله تعالى ان استشهد وان عاش وبقي حياً فانه يؤجر ويصبح مركزاً يجتمع اليه كل من على شاكلته فان الزمان وان فسد اهله لا يخلو من

صلحاء اتقياء بررة مجاهدين في سبيل الله يرفع الله بهم البلاء عن الأُمة ومثل ذلك اذا صلح اهل الزمان فانهم لابد ان يوجد بينهم مفسدون يكونون محلا للقاذورات كما قدمنا ذلك فالمؤمن هو من لم يتطرق اليأس الى نفسه ولم تمنعه قلة الانصار من الثبات في جانب الحق حتى ينصره الله او يموت شهيداً في سبيله

روى البخاري ومسلم عن ابن عباس ان رسول الله (ﷺ) قال : عرضت عليَّ الامم فرأيت النبي ومعه الرهط والنبي ومعه الرجل والرجلان والنبي وليس معه احد » ـ الحديث

فهذا برهان على ان كثرة الاتباع ليست دليلاً على الحق والا لما كان الانبياء يبعثون وبعضهم لايؤمن به شخص واحد حتى انه يحشر منفرداً ليس معه احد مثلما ان بعضهم لايجد له ناصراً كلوط عليه السلام قال تعالى حكاية عنه لو ان لي بكم قوة او آوي الى ركن شديد . . ٨٠ ـ سورة هود . وقد يضطر فريق منهم الى الهرب من كيد الاعداء كموسى عليه السلام قال تعالى « فخرج منها خائفاً يترقب » ٢١ ـ سورة القصص . وهجرة نبينا محمد (ﷺ) خير دليل واعظم برهان . على ان كثيراً من الانبياء قد قتل كما حكى الله عن اليهود بقوله : فبما نقضهم ميثاقهم و كفرهم بآيات الله وقتلهم الانبياء بغير حق » ١٥٥ ـ سورة النساء فعليه يجب على المؤمن ان يثابر على الجهاد في سبيل الله ونصرة الحق وان لايكترث بمن يساعده قل او كثر وانما عليه ان يعلم ان عمله مُرضٍ لله تعالى الذي اليه الرجعى والمآب وان هذه الحياة الدنيا وان طالت

فانها دار غرور خلقها الله للاخرى الباقية كي تنجم عنها النتيجة المعلومة: إما جنة عرضها السماوات والارض أُعدت للمؤمنين الطائعين وإما نار وقودها الناس والحجارة أُعدت للكفار والمنافقين.

فاذن من اسباب تقدم المسلمين خلع رداء الاتكال حتى يعتمد كل انسان على نفسه ويقوم بواجبه غير طالب معونة ولا مدداً من غير الله تعالى، ومن اسباب تقدم المؤمن الاعتقادُ الصادق بانه على بينة من امره وانه على حق حتى يستعذب كل مر في سبيل الحصول على ذلك الحق فلا ييأس ولا يقنط متذكراً قول الله تعالى: ولا تهنوا ولا تحزنوا وانتم الاعلون ان كنتم مؤمنين ـ ١٣٩ ـ ان يمسسكم قرح فقد مس القوم قرح مثله وتلك الايام نداولها بين الناس وليعلم الله الذين آمنوا ويتخذ منكم شهداء والله لايحب الظالمين ـ ١٤٠ ـ وليمحص الله الذين آمنوا ويمحق الكافرين ـ ١٤١ ـ ام حسبتم ان تدخلوا الجنة ولما يعلم الله الذين جاهدوا منكم ويعلم الصابرين ٤٢ ـ سورة آل عمران.

واقوى اسباب تقدم المسلمين حب الموت لاجل الحياة.

لايقدر المسلمون على التخلص من المهاوي التي وقعوا فيها مادام كل واحد منهم يتكل على غيره كي يساعده في اصلاح حاله والنهوض بنفسه فلا شك في ان كل واحد منهم يقع في نفسه مثل ماحصل في نفس رفيقه فتسود الاماني وينتج عنها الخيال فيصير الامر وهماً في وهم وتكون العاقبة هباءً منثوراً.

مثال ذلك ان اهل قرية عرفوا بالبخل وشدة الحرص كانت منازلهم

على قارعة الطريق المطروق للقوافل فأرادوا محو ذلك العار واتفقوا مساءً على ان يُخرج كل واحد أكلا يضعه في الممر العام كي يتمدح الناس بكرمهم لكن جبلتهم وما عاشوا عليه زمناً طويلا من البخل والحرص قد اثر في نفوسهم حتى تصور كل واحد منهم ان غيره سيأتي بالاكل وهؤلاء يحتاجون الى ماء ومن المعلوم ان الماء اخف مؤنة من كل شيء فخطر في ذهن كل واحد منهم هذا الخاطر فلما تعالى النهار اذا باهل تلك القرية قد اقبل كل واحد منهم يحمل قلة ماء في موضع لاقيمة له فيه . فصار عملهم هذا اقبح مما كان يسند اليهم سابقاً واشدّ شناعة واعظم عاراً وشاعت هذه الحادثة حتى صارت مضرب الامثال

وهكذا الافكار اذا فسدت تتصور الامور البعيدة وترى الطمع الاشعبي حقيقة راهنة لان الشخص متى اكثر من الاحتمالات والامور الوهمية لايمكن ان يصدر منه عمل نافع او تظهر لسعيه ثمرة غير الهباء او مجرد القيل والقال والدعوة الفارغة المستندة على العجب والغرور، وتأكدوا ذلك في كل ثرثار وفي كل مساند مكثر للاحتمالات يقدم رجلاً ويؤخر اخرى فانكم اذا درستم نفسه واطلعتم على سيره تسمعون جعجعة ولا ترون طحنا .

كان المسلمون في صدر الاسلام يجتهد كل واحد منهم ان يخفي عمله عن اخيه المسلم ولو كان ابن امه كما وقع لابني عفراء يوم بدر فان كل واحد منهما كان يريد وحده الاستئثار بقتل ابي جهل فقد هجم كل واحد منهما عليه مؤدياً واجبه على حدة لايدري بأخيه الثاني ولا يعرف

ما كان مصمماً عليه فتناولته سيوفهما متسابقين على قتله وكفى الله بهجومهما المسلمين شر ابي جهل فرعون هذه الامة كما رواه البخاري في صحيحه .

اذن نقدر ان نحصر الاسباب التي يتقدم بها المسلمون فنقول :

الاول — توحيد الله تعالى توحيداً لاشريك له فلا نطلب المعونة الا منه وان يعتبر المسلم نفسه بشراً مساوياً لغيره من بني آدم بل من خلق الله جميعاً فلا يحط نفسه الى ان تكون ضعيفة لاتطلب من الله تعالى المعونة بل تستمد قواها من الاموات او الاعواد او الآثار تريد منها ان تقربها الى الله زلفى فان عقيدة التوحيد هي التي تنهض بالاسلام من كبوته وما الوسيلة الا رخصة لضعاف العقول والعقيدة على شرط ان تكون بشخص محقق قبوله عند الله تعالى كنبي او من شهد له النبي بالجنة لتكون بمثابة وسيلة بالعمل الصالح وهي جائزة كحديث اصحاب الرقيم : وما حديث عثمان بن حنيف الذي رواه الترمذي الا رخصة لشخص لم يصل به ايمانه الى ان يطلب من الله تعالى رأساً ومع هذا فكانت الوسيلة برسول الله (ص) وهي وسيلة بعمله ولهذا لم يعلم رسول الله (ص) غير هذا الرجل لانها رخصة لضعيف الايمان او فاتر الهمة على الشرط الذي ذكرناه .

ومن قسم التوحيد اصلاح عقيدة القضاء والقدر اللذين كانا من اسباب عوامل التشجيع على الجهاد فانقلب الامر الى ان صارتا محسنتين لكل قبيح بداعي ان الله اراده وقدره وان كان مستنكراً له ولم يرض به ولقد اصبح هذا عقيدة راسخة حسنت للمسلمين القعود والاعتراف بالواقع حتى ان كثيراً من المنتسبين للعلم يحسن استعمار الاجنبي لبلاد

المسلمين لانه مراد الله تعالى او انه قضاء الله وقدره ويمنعون الجهاد غير ملتفتين الى ان القضاء والقدر بهذه الصورة رفع للتكاليف الآلهية ومحو للدين والغاء لاحكام الله تعالى وتعطيل لاوامر الله ونواهيه وحدوده وسائر شرائعه ولهذا قال رسول الله (ص) : اذا ذكر القدر فامسكوا رواه الطبراني في معجمه .

الثاني — الرغبة في اداء العبادة وعدم الخجالة من التمسك بالدين لأن الحق لايستحي من فعله ولان الذي يخجل من ذلك فهو اضعف من ان يخاصم عدوه في حين ان عدم الرهبة من العدو هي الايمان الصادق قال تعالى : يحبهم ويحبونه اذلةٍ على المؤمنين أعزة على الكافرين يجاهدون في سبيل الله ولا يخافون لومة لائم - ٥٤ - سورة المائدة، واثقاً من قول الله تعالى « ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين ولكن المنافقين لايعلمون » - ٨ - سورة المنافقين .

الثالث — حب الموت للحياة والتهافت عليه فيعلم بأن هذه الروح امانة عنده وقد باعها من الله عز وجل قال تعالى « ان الله اشترى من المؤمنين انفسهم واموالهم بأن لهم الجنة يقاتلون في سبيل الله فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وعداً عليه حقاً » - ١١١ - سورة التوبة ، فان الخشية من الموت علامة على عدم الايمان قال تعالى « ومن الذين اشركوا يودُّ احدهم لو يعمر الف سنة وما هو بمزحزحه من العذاب أن يعمر - ٩٦ - سورة البقرة بل علامة على فقدان العقل فانا نجد كثيراً ممن يضحي بنفسه وهو ملحد ولكنه يعلم بان ذلك حياة لأمته وهو جزء منها فهو يموت ليعلو شأن

امته فلا تتأخر عن غيرها اذا لم تنل السيادة او التقدم عليها . ثم ينبغي للمسلم ان يعلم بان النصر مخصوص بمن ينصر الله تعالى بالسعي لاعلاء كلمته واعزاز دينه قال تعالى « ولينصرن الله من ينصره » ـ ٤٠ ـ سورة الحج .

واول النصر الطاعة فانها موضع تفاوت الاجر في جميع الاعمال وعلى قدر الاخلاص فيها يعظم الثواب ويكثر فالمجاهد الصادق هو من يطلب المعونة من الله تعالى ولا يسوف الامر الى ظهور المهدي او غيره فان الله يقول في نزول الملائكة لرسول الله (ﷺ) « وما جعله الله الا بشرى لكم ولتطمئن به قلوبكم وما النصر الا من عند الله العزيز الحكيم » ـ ١٢٦ ـ سورة آل عمران .

الرابع ـ معرفة الدين معرفة صادقة من اباحة للنافع وتحريم للضار على شرط الرجوع الى كتاب الله تعالى عند النزاع والاختلاف لانه الكتاب الذي لايأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ولا يمكن تزوير نصوصه واختلاق روايات له فان عمر بن الخطاب حينما كان الاسلام غضا واراد رسول الله (ﷺ) ان يكتب للمسلمين كتابا لن يضلوا من بعده قال : حسبنا كتاب الله تعالى اه فاولى بنا ان يكون حسبنا بمعنى ان نرفض كل مايخالف نصه الصريح الذي لايحتمل التأويل فان ذلك يخفف العبء الثقيل وهو جعل الفقه معقداً بحيث يمضي العمر ولا يقدر المسلم ان يحيط بما يشتمل عليه من اقوال لاتجدي نفعاً وخلافات لامعنى لها وتفاريع كثير منها يستحيل وقوعه فضلا عن امكانه ، لكنه

ينبغي اعتبار خلاف الائمة والعلماء مداراً للرحمة فلا يعترض على من خالفه ولا يحتقره وان اعتقد خطأه لان المجتهد المخطئ في الفروع له اجر الاجتهاد .

فيجب نبذ الخرافات وتجريد الدين من الوصمات المخجلة مما يسمونه حيلاً شرعية ونحو ذلك من المعايب وان يكون العالم عاملا بمعنى انه يبذل كل غال ورخيص في سبيل اعلاء كلمة الله ، اما جهلة المشايخ من الخرافيين والقصاصين والجامدين مطايا الاستعمار فينبغي احتقارهم وان لايكون زيهم شفيعاً لهم ولا مجد آبائهم اذا كان الابناء سفلة لانه لا يصح ان يكون العلم ارثا بدون تحصيل وتعلم ومن الجهالة ان يقدس فلان الجاهل لان اباه اوجده كان عالماً فالناس ابناء آدم او نوح وهو نبي وابن النبي احق بالاكرام من ابن العالم . على ان مما لاريب فيه ان هذا التقديس واحترام المتنفذين الفسقة وارباب الوظائف الدينية من جهلة المشايخ كان سبباً لكل بلاء .

الخامس ــ عدم ربط الدين بمقام الوظيفة او الرتبة فان من اعظم تمزيق شمل المسلمين ووصوله الى حاله الحاضرة حتى اصبح المسلمون مستضعفين في مشارق الارض ومغاربها واذل الامم واحقرها ، اعتبار كل مايصدر من مقام مشيخة الاسلام او الافتاء او القضاء الشرعي هو من الدين وان خالف قواعد الدين ، بل تنبغي محاسبة رؤساء الدين في كل وقت وتطبيق افعالهم على اقوالهم ومطالبتهم بالدليل وحكمة التشريع فلقد اصبحت بلادنا مستعمرة ينصب غير المسلمين فيها المفتيين والقضاة الشرعيين

ومعظمهم خريج دوائر الاستعلامات والاستخبارات ومع هذا فان المغفلين من المسلمين مابرحوا يتلقون اوامرهم التي يبلغونها عن المستعمرين بالقبول ويعتبرونها من الدين يعملون بها عن عقيدة ولا يتذكرون بان كثيراً من هؤلاء اداة لتخريب الدين

السادس ـ بذل المسلمين المال لايجاد علماء يؤسسون معاهد دينية فكثير منهم ـ في غير الديار التي لامعهد ديني فيها ـ يدرسون قليلا على بعض المشايخ العبادات وقليلا من المعاملات النافعة واذا كان من بيت علم اكتفى بتكبير عمامته وتوسيع اكمام جبته من غير ان يعمل بما قرأه وبعضهم لايفهمه وغالبهم لايقوم باول الواجبات وهو الارشاد والامر بالمعروف والنهي عن المنكر ومعرفة طرقه الخفية والجلية وان قام بعضهم بيسير من ذلك فانه يستعمل القسوة والتشديد على من خالف مذهبه حتى تنفر الناس من الدين بسبب هؤلاء المنتسبين اليه وارى ان ذلك ناشئ من فقد الجامعات الدينية وان الجامع الازهر هنا لايقوم بهذا القسط حق القيام في حين ان العقبات تقام امام الغريب الذي يأتي طالب علم لهذه الديار ولربما يأتي يوم لايوجد في الازهر من الغرباء الا النادر مع انهم كانوا فيه الاكثرية الساحقة .

واليكم جمعيات المبشرين كيف تنشر الدعاية من طريق الطب وغيره في المدن التي هي خلو من المسيحيين فقد بلغني ان البروتستان اقاموا في بلادنا ـ دير الزور قاعدة وادي الفرات ـ معهداً للتبشير ومستشفى وكنيسة في حين انه لايوجد في تلك الديار شخص واحد على مذهبهم

ويقال ان الآباء الكبوشيين عازمون على تشييد مدرسة للتبشير و كنيسة ضخمة فان صح ذلك فهي مقدمة لتنصير ابناء المسلمين حتى تكون البلاد العربية اندلساً ثانية من طريق المدارس والدسائس ولكن المسلمين نيام والعلماء غير قائمين بواجبهم يضيع عمر نحريرهم بين قال وقيل معرضا عن حماية الدين او الاكتراث بالاخذ في اسباب ذلك ، وقصارى ما وصل اليه هو التهويل من اعمال اعداء المسلمين والتخويف من قوتهم ومدافعهم وطياراتهم وعتادهم ظنا منه ان هذا هو الدين ولم يعلم ان الدين بريء منه ومن اعماله هذه وامثالها .

السابع ـ الاعراض عن كل ما يدل على التشاؤم وعدم المبالاة بالارجاف فيتأسى برسول الله (ﷺ) واصحابه الكرام حيث قال الله فيهم « الذين قال لهم الناس ان الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم فزادهم ايمانا وقالوا حسبنا الله ونعم الوكيل » ـ ١٧٣ ـ سورة آل عمران . فالمؤمن من لا يكترث بالاعداء اذا كثروا لعلمه بانه قادم على رب كريم وهو مؤمن باليوم الآخر ، اما الذين لا يثقون بالله فاملهم هذه الحياة فقط لذلك لا يمكنهم ان يتمنوا الموت ابداً لسوء اعمالهم قال تعالى « ولن يتمنوه ابداً بما قدمت ايديهم والله عليم بالظالمين » ـ ٩٥ ـ سورة البقرة ، واما المؤمن فانه واثق بوعد ربه في الآخرة بالجنة وفي الدنيا بالعز والظفر قال تعالى « وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم في الارض كما استخلف الذين من قبلهم وليمكنن لهم دينهم الذي ارتضى لهم وليبدلنهم من بعد خوفهم امنا » ـ ٥٥ ـ سورة النور .

الثامن ـ الاجتماع والنظام والطاعة لولاة الامر ما داموا على النهج السوي فان خرجوا عنه فالخروج عليهم وجهادهم فرض لازب حتى يخضعوا للحق فان فئة قليلة على الحق والتقوى خير للمسلمين من جيوش جرارة ينخر فيها سوس الظلم والفسق وارتكاب الموبقات ولكن المسلمين لما وهنت منهم القوى اصبحوا لا يجيزون باسم الشرع الخروج على الامام بالظلم والفسق بينما كان احد الاعراب يقول لعمر بن الخطاب وهو على المنبر: لو رأينا فيك اعوجاجاً لقوّمناه بسيوفنا ولم يقل احد من الصحابة قد خرجت على الاسلام وعصيت لان السيف لايشهر على الامام اذا كان ظالماً ولم يعلموا ان الرضاء بحكم الظالم تشويق للظلم وايجاد لاسباب تقويته حتى حصل للمسلمين ماأصابهم اليوم من ذل وضعف وخمول وحقارة .

اما اذا كانت الائمة على النهج السوي فالطاعة والنظام واجبتان لانها سر كل نجاح فان جيش رسول الله (ﷺ) يوم أحد ما كان ليخذل لولا ان الرماة تركوا مكانهم من الجبل ولم يصغوا لامر رسول الله (ﷺ) ولا لقائدهم عبد الله بن جبير اخي بني عمرو بن عوف الانصاري فكانوا سبب كارثة أحد التي استشهد فيها سبعون من كرام الصحابة بعد ان كانوا غالبين واليه يشير قول الله تعالى :

(ولقد صدقكم الله وعده) ـ بالغلبة ـ (اذ تحسونهم باذنه) ـ حيث قتلوا حماة اللواء فلم تجد له قريش حاملا غير امرأة تركته مطروحا ـ (حتى اذا فشلتم وتنازعتم في الامر وعصيتم) ـ بترك الرماة مكانهم من الجبل ـ

(من بعد ما اراكم ما تحبون) النصر (منكم من يريد الدنيا) الغنائم (ومنكم من يريد الآخرة) طاعة الرسول (ﷺ) كالقائد عبد الله بن جبير وعشرة معه (ثم صرفكم عنهم ليبتليكم) بقتل السبعين والهزيمة (ولقد عفا عنكم) ـ ١٥٢ ـ سورة آل عمران

وما جعل الشارع صلاة الجماعة تعدل صلاة الفذ بسبع وعشرين درجة كما في الصحيحين الا لتعويد المسلمين على النظام والطاعة بل إن جعل الصلاة على هذه الصورة بحيث يبطلها تقديم بعض الاركان على بعض هو النظام بعينه فاذا كان الله يشترط النظام لقبول العبادة فنجاح الامور الدنيوية بالنظام اولى واجدر لان الفوضى خراب ودمار مهما يكن شكلها ونوعها ولذلك كان رسول الله (ﷺ) يشدد في لزوم تنصيب الامير ولو للمسافر سفراً قصيراً .

روى الامام احمد عن عبد الله بن عمر قال قال رسول الله (ﷺ) « لايحل لثلاثة يكونون في فلاة من الارض الا أمروا عليهم احدهم » ورواية ابي داود عن ابي سعيد الخدري « اذا كانوا ثلاثة في سفر فليؤمروا عليهم احدهم » . وذلك لجمع الكلمة التي يرمي اليها الدين الاسلامي في جميع احكامه فان الاجتماعات تبتدئ في مساجد الاحياء في الصلوات الخمس ، ثم تتسع لاهل المدينة او للمصر في الجمعة ، ثم تجمع اهل المدن والقرى في مصلى العيد باحد اطراف المدينة ، ثم اجتماع المسلمين باشخاص ممثليهم من اولي العقول عن انفسهم او عن طريق البدل باذن وبغير اذن ومن ارباب الثروة عن انفسهم في الحج فانه المؤتمر الاعظم

للمسلمين لو عقلوا قول الله تعالى « ليشهدوا منافع لهم و يذكروا اسم الله »
- ٢٨ - سورة الحج فقدم شهود المنافع ولهذا فان جميع العبادات اذا
فسدت لا يصح المضي فيها الا الحج لان الذكر اذا فسد فان شهود المنافع
مابرح باقياً فيستطيع الاغنياء ان يرسلوا عقلاء بلدانهم وعلماءهم عن طريق
البدل عن آبائهم وامهاتهم واسلافهم بدون احتياج الى وصية منهم ولكن
انى للمسلمين ان يدركوا ذلك وحكمة التشريع محظور ان يبحث عنها
طالب علم فضلا عن العامي وانما اصبحت مهمة الحاج ان يحكي لنا هيأة
المحلات المقدسة او يشغل نفسه بعدّ ابواب الحرم ومعرفة نقوش الستار
والميزاب من الامور التي لاعلاقة لها بالحج فلا حول ولا قوة الا بالله .

التاسع — الاخذ بالاسباب فان الله ربط المسببات كلها بالاسباب
حتى ان المعجزات الخارقة للعادة تأخذ صورة من الاسباب فان رسول الله
ﷺ لما سقى في غزوة الحديبية خمسمائة والفا مع حيواناتهم اتى بقليل من
الماء ووضع يده فيه وشربوا وسقوا حتى كفاهم ولم يضع يده باناء فارغ
وانما اخذ بصورة الاسباب ليعلم المسلمين ان ذلك سنة الله في خلقه ولن
تجد لسنة الله تبديلا ، فالحصول على الاشياء العظيمة من طريق الكسل
امر غير ممكن بل هو علامة النفاق فالويل كل الويل من دعاة هذا الحزب
وهم الاتكاليون الذين يريدون ان يتعود المسلمون على القعود ويحتجون
على مشروعيته بالقضاء والقدر مع انهما - كما قدمنا - من اهم الاسباب التي
تدفع المسلم الى الجهاد في سبيل الله ليعلم بانه لايصيبه الا ما كتب له لكن
الآية انعكست فاصبح القضاء والقدر دليلا على جواز القعود وبرهانا

على جعل القبيح او المنكر غير مستهجن لانه مقدر من الله ومراد له ويعضدون ذلك بحديث « لو انكم تتوكلون على الله حق توكله لرزقكم كما ترزق الطير تغدو خماصاً وتروح بطاناً » . . رواه احمد والترمذي والحاكم وابن ماجه من حديث عمر بن الخطاب مع ان هذا دليل على الالحاح في العمل وطلب الرزق لان الطير تغدو صباحاً جياعاً من وكرها للسعي وطلب الرزق فلا ترجع الى وكرها الا مساء وقت الرواح شبعانة ولعل هذا حجة على جواز الاشتغال نصف العمر لان الطير تسعى النهار كله وتأوي الى وكرها ليلا في حين ان الشارع رضي منا للعمل بثلث اليوم والليلة اما المغفلون فلا يخجلون من جعل هذا الحديث برهانا على صحة القعود والخمول والكسل مع انه لو كان المراد مايتوهمون لقال « لرزقكم كما يرزق الطير تبقى دائماً في وكرها فاتحة فاها ويرزقها الله تعالى » ولكن المصيبة ان كثيراً من اهل العلم لايعرف اللغة العربية ولا يعرف دقائقها وان كان ينتمي بعنصره الى العرب فان من المصيبة ان بعض من يقرأ حواشي الصبان وتقاريره لايحسن قراءة عبارة صحيحة وان قرأها لايكتب جملة رصينة وبعض من يقرأ المطول لايفهم من اسرار اللغة العربية الا ماتلقنه بالحرف حتى لايجسر ان يزيد معنى صحيحاً مطابقاً لقواعد اللغة فلقد اثر التقليد الاعمى في جمود العقل حتى في العلوم العربية فاولى ان تنجم عنه في الدين خرافات كثيرة ولعلنا نجد مسوغاً في ضم معرفة اللغة العربية معرفة صحيحة بهذا البند ليكون اخذاً في الاسباب لمعرفة الدين على حقيقته ولانها اللغة الجامعة لشعوب كثيرة كما اوضحنا ذلك في محاضرتنا « اللغة العربية

رابطة الشعوب الاسلامية » .

العاشر — الاعتقاد بان دين الاسلام دين العز والسؤدد وانه صالح للدنيا والآخرة ولا سيما في زمان بلغت الدسائس التي تلقى في اذهان المسلمين المتعلمين درجة انهم اصبحوا يعتقدون ان الاسلام دين جامد لايصلح للحياة حتى ان بعض الحكومات التي كانت تنتمي للاسلام تبرأت منه اخيراً بداعي انه يورث الذل بينما المسيحية تورث العز في حين ان نظرة واحدة الى التاريخ تدلنا على ان العرب كانوا قبل الاسلام ضعافاً ولكن الاسلام قد اعلى شأنهم ورفع كلمتهم وان الدولة التي تبرأت من الاسلام كانت ضعيفة همجية و كانت رحلتها من الشرق بسبب الجوع والفقر فلما دخلت في الاسلام صارت من اعظم دول الارض ولكنها لما اتخذته مطية ووسيلة بعد ما كان مقصداً تفسخت وتجرأ عليها من كان محكوماً لها لما كانت متمسكة بالدين عن اخلاص .

وان اليونان والرومان كانوا اعز دول العالم فلما دخلوا في المسيحية ضعف شأنهم وزالت دولتهم واصبحوا لاحول لهم ولا طول الى ان حوروه وجعلوه لاعلاقة له مع السلطة والدولة .

الحادي عشر — تعود المسلمين على التبرع في سبيل المصلحة العامة فان هذه الكثرة الهائلة لو بذلت القليل من المال لأوجدت ثروة طائلة جداً فلو ان كل مسلم يبذل في الشهر الواحد قرشاً لجمعوا في السنة الواحدة ثلاثة آلاف وستمائة مليون قرش وهذه ثروة لايستهان بها وعندئذ يسهل عليهم انشاء كل مايوجد من المعامل والآلات الحربية والمهمات والمخترعات

وغير ذلك من انواع الصناعة ولكن انى لهم ذلك وهم لايعرفون المصلحة العامة ولا المفاخرة بالامة في حين ان هذا خلق جاهلي قال عمرو بن كلثوم في معلقته :

اذا بلغ الفطام لنا صبي تخـر له الجبابر ساجدينا

ولكننا مع الاسف نعيد من الجاهلية مثالبها ومن الدور الاسلامي ماحكاه الله عن المنافقين، أما الامور المستحسنة فانا نعرض عنها ولا نرضاها وتلك شأن كل امة انحطت مدار كها وسرى في جسمها مرض الانحلال والضعة والخمول .

الثاني عشر ـ الاتحاد التام وحب الامة حتى نكون كما قال رسول الله (ﷺ) كمثل الجسد الواحد اذا اشتكى عضو منه تداعى اليه سائر الجسد بالسهر والحمى ، رواه البخاري في صحيحه ، ولكننا اصبحنا لانبالي باخواننا الاقربين وان هلكوا فضلا عن الابعدين فما اصاب مسلمي الغرب ومراكش والبربر والشام وفلسطين لم يكن ليهز المسلمين في حين ان اميركا البعيدة عن اوروبا يتطوع شبانها الطيارون لمحاربة الامير عبد الكريم انتصاراً منهم لفرانسا واسبانيا ولا يكون ذلك تعصباً ولا عداوة بالمسلمين وان البلاد الشامية يوجد فيها من المهاجرين غير المسلمين اناس كثيرون وان احدهم ليسير مسافة بعيدة او ينتظر اياماً ليشتري من افراد امته اما المسلمون فانهم يشترون من غير المسلمين باسعار اغلى من اسعار المسلمين بحجة الانتظام او اجادة الصنع او التمدن والذوق وربما يكونان من محل واحد فانها لاتعمى الابصار ولكن تعمى القلوب التي في الصدور .

ان الله جعل اموال المسلمين مال شخص واحد فهم اشتراكيون ولكن بطريقة اختيارية كما قال الله تعالى « ويؤثرون على انفسهم ولو كان بهم خصاصة » ـ ٩ ـ سورة الحشر . وهذا فوق الاشتراكية ولكنه اجاز التمليك ليتم التسابق في الحياة حتى يظهر تفاوت العقول وتمايز ثمرات السعي الا ترى الشارع يحجر على السفيه المبذر كي لا يضيع ماله وعلى الصغير كي لا يعتدي عليه طامع قال تعالى «ولا تؤتوا السفهاء اموالكم التي جعل الله لكم قياماً وارزقوهم فيها واكسوهم وقولوا لهم قولا معروفاً » ـ ٤ ـ « وابتلوا اليتامى حتى اذا بلغوا النكاح فان آنستم منهم رشداً فادفعوا اليهم اموالهم » ـ ٥ ـ سورة النساء . فقال ولا تؤتوا السفهاء اموالكم ولم يقل اموالهم لان مال المسلمين كلهم مال واحد ولم يسلم الى اليتامى اموالهم الا اذا بلغوا راشدين لم يلحقهم حجر السفه ليفهم المسلمون انهم اسرة واحدة فيحب بعضهم بعضا وتكون تجارتهم واحدة فيرجحون المسلم على غيره ويتألمون من كل اذى يصيب اخوانهم ويساعدونهم بما يقدرون عليه فكم اصابت المسلمين نكبات عديدة ولكن لم يتبرع اغنياؤنا الا بالشيء الزهيد واذا حصل اكتتاب لكارثة في اوروبا او امير كا تسابق الاغنياء الى التبرع بكثرة ورغبة زائدة ليتجلوا لديهم بانهم كرماء اما الى المسلمين فلانهم لا يجدون في نفوسهم ايماناً يدفعهم الى الرحمة باخوانهم وانما ورثوا عن آبائهم نسبة الاسلام فانتموا اليه بغير عمل ولا تحقق لما يشتمل عليه من الايمان الذي منه ماقاله رسول الله (ﷺ) «لا يؤمن احدكم حتى يحب لاخيه كما يحب لنفسه» رواه احمد والبخاري من طريق انس ومنه « المسلم من سلم المسلمون من

لسانه ويده » رواه البخاري ومسلم .

الثالث عشر ـ الاعتماد على النفس وعدم افساح مجال لتطرق الوهم المضعف للعزيمة فان من اجل حكمة الصيام التمرن على الاعتماد على النفس والتعود على البطولة وقوة الارادة لأنه اذا كان قامعاً لشهواته مرضاة لربه فانه الشجاع الماجد والبطل المغوار لا ييأس ولا يبالي بما ينتابه في سيره ولو اصطدم بالعقبات مرات عديدة حتى يكون ممن قال الله تعالى فيهم « وكأين من نبي قاتل معه ربيون كثير فما وهنوا لما اصابهم في سبيل الله وما ضعفوا وما استكانوا والله يحب الصابرين » ـ ١٤٦ ـ سورة آل عمران .

الرابع عشر ـ استخدام العقل الذي جاء الاسلام محرراً له من قيود عادات الجاهليين فلقد امر الله بالتدبر في كل شيء حتى كتابه عز وجل فقال تعالى « افلا يتدبرون القرآن ام على قلوب اقفالها » ـ ٢٤ ـ سورة محمد ، وان لا يقتصروا في تحصيل العلم على الفقه المتعلق بصورة العبادة الظاهرة فقط بل يتجاوزون بالفقه الى ماعرفه المتقدمون من انه معرفة النفس مالها وما عليها ليشمل التوحيد والعبادات والمعاملات والاخلاق وان لا يذهلوا عن حكمة التشريع ومعرفة اسرار الاحكام وان يبذلوا الجهد في تحصيل العلوم التي تنير الذهن وتعقل العقل وتحفظ اللسان عن الخطأ ، وان يهتموا بالعلوم الكونية الارضية والسماوية وما بينهما وما له علاقة بها من هيأة ورياضة وصناعة وزراعة وتجارة وحكمة وغير ذلك قال تعالى :

«ان في خلق السماوات والارض واختلاف الليل والنهار والفلك التي تجري في البحر بما ينفع الناس وما انزل الله من السماء من ماء فاحيى به الارض بعد موتها وبث فيها من كل دابة وتصريف الرياح والسحاب المسخر بين السماء والارض لآيات لقوم يعقلون» ـ ١٦٤ ـ سورة البقرة .

فترى الحق تعالى يرغبنا في ان نعرف علوم الارض وما في بطنها وما على ظهرها من نبات وحيوان ومعدن وجماد ويشوقنا الى معرفة الامطار وما ينجم عنها والرياح وتصريفها ويحثنا على معرفة الافلاك والاطلاع على علوم الهيأة والنجوم والفنون الكونية وعلاقاتها مع بعضها لان امة شهد لها الله بانها خير امة اخرجت للناس لاشك في انه لا يرضى لها ان تكون علومها مقصورة على ابحاث بسيطة لا اثر لها في المجتمع ولا حس لها في علوم الكون ونظامه ولا يقبل منها ان تبقى مكتوفة الايدي بينما تظهر ادمغة اعاديها كل يوم اختراعاً جديداً ، فلقد استخدمت الماء والهواء وسخرت الجماد واستنطقته فهذه مناطيدها وطياراتها تخترق الفضاء ، وبوارجها وبواخرها تمخر عباب البحار ، وغواصاتها تسير في قعرها ، فسابقت الطيور وسيطرت على الحيتان والاسماك واستغنت بالمعادن والمفرقعات والمدافع والرشاشات والقذائف والقنابل والبنادق عن كثير من الجيوش الجرارة ، واستخدمت الريح في نقل الاخبار حتى اصبح المشرق والمغرب في مجلس واحد ، ووصلت بين المسافات الشاسعة حتى اصبح البعيد قريباً ، واستعاضت بالمعامل والمصانع عن الالوف المؤلفة من الايدي العاملة .

بل كان الاجدر بالامة الاسلامية ان تكون المجلى في حلبة سباق الحياة ، والحائزة قصب السبق في ميدان العراك والتزاحم والاصطدام لان الله تعالى قد اباح لها البحث في كل شيء ولم يقيد العقل مادام على النهج السوي حتى لقد اوجب عليها ان تتعلم العلم ذكورها واناثها ورغبها في تعلم جميع انواعه فلا نقتصر على فن مخصوص بل اذن للعقل ان يسبح في السماوات وما تحتها والاثير وما يشتمل عليه وان يفكر في الارض وما في بطنها من الخزائن والكنوز والثمرات ليستفيد من ذلك ويكون سيداً في الدنيا سيداً في الآخرة .

ان الله تعالى غني عن العالم وعن عباداتهم ولكنه شرع العبادات والاحكام والشرائع لمصلحة البشر انفسهم ولاجل هدايتهم كي يستبين الرشد من الغي والصواب من الخطأ والحق من الضلال ، وان من أجل نعم الله علينا ان خلقنا في آخر الزمان لنقارن بين الديانات والشرائع حتى تظهر لنا احقية الدين الاسلامي ويتضح لنا انه الدين العدل الحق الصالح لكل فرد من افراد البشر ذكراً او انثى ، قوياً او ضعيفاً ، صحيحاً او عليلاً ، هرماً او شاباً في جميع الازمنة والامكنة لانه روعي فيه حال الضعيف ولم يضطهد القوي ولم يظلم اعداءه ولم يغمط فيه حق ذي حق وهذا هو السر في انتشاره من غير دعاة له ومع انا في اشد حالات الضعف والهوان فان الصحف تخبرنا باهتداء كثير من الامم الاخرى وانهم اعتنقوا الدين الاسلامي فاذا كان مايقولونه حقاً - وهو الراجح - فما ارى السبب في ذلك الا انهم قرأوا كتاب الله تعالى وفهموا آياته وقارنوا بين عدله في

الاحكام وصلوحيتها لكل زمان ومكان وبين الشرائع الاخرى فرأوا من سماحة الدين الاسلامي واتساعه للاعداء مالا يخطر على بالهم فان من جملة احكامه لأهل الذمة غير المسلمين ماللمسلمين وعليهم ماعلى المسلمين اذا عاهدونا بان لا يشهروا في وجوهنا سلاحاً ولا يعينوا علينا عدواً ووفوا بذلك في حين ان من قرأ الاصحاح السادس وما بعده من سفر يوشع في العهد القديم يعجب من هذا الذي يقولون انه امر إلهي فالآية الخامسة والعشرون تقول : واحرقوا المدينة بالنار مع كل مابها ، ولا يخفى ان فيها الشيوخ والاطفال والنساء والعجزة والمرضى والبهائم والحبوب ولكن محمداً (ﷺ) نهى ان تقتل امرأة او طفل او راهب او عابد او شيخ ماداموا لم يحاربوا في الجيش ضد المسلمين وليست النصارى باقل عملا من بني اسرائيل فان فظائعهم في الاندلس ليست منسية قال الرندي :

حيث المساجد قد صارت كنا ئس مافيهن الا نواقيس وصلبان

بل لم يكفهم تنصير صغار المسلمين حتى تجاوزوا الى الاعراض فاستباحوها بعد تلك المعاهدة المشؤومة ذات الخمس وخمسين مادة المؤرخة ٢٢ محرم سنة ٨٩٨ والتي كانت حافظة لحقوق المسلمين لو روعيت ونفذت ولكن من اعظم مفاخر الاوروبيين منذ الزمان القديم اعتبار المعاهدات عليهم قصاصة ورق لاقيمة لها ماداموا اقوياء او لايستطيعون التملص منها واذا كانت المعاهدة لهم فانها حق مشروع يجب تطبيقه باوسع مايمكن ولا سيما اذا كانت عندهم قدرة على تنفيذها ، فمن تجاوزهم على الاعراض ما اخبرنا به المنكوب في حادثة الاندلس والمشاهد لها عياناً ابو البقاء

صالح الرندي بقوله :

وطفلة مثل حسن الشمس قد طلعت كأنما هي ياقوت ومرجان
يقودها العلج للمكروه مكرهة والعين باكية والقلب حزنان
لمثل هذا يذوب القلب من كمد ان كان في القلب اسلام وايمان

اما ماجرى في ايامنا هذه في طرابلس الغرب والديار الشامية من الفظائع والمظالم والمذابح وهتك الاعراض فقد امتلأت منه الصحف والمجلات وهي لاتذكر الا اليسير التافه كي لاتعكر صفو الدول المستعمرة الحاكمة او تؤثر على علاقاتها ومع هذا فانه لايقل عن كارثة الاندلس اذا لم يكن اعظم منها .

نعود الى الموضوع فنقول : ان الشريعة الاسلامية هي المتممة للتشريع البشري العام فلا يصح ان يطرأ عليها نسخ ولا تغيير ، وان من اعظم ماتأمر به هذه الشريعة الغراء الاعتماد على النفس ونبذ كل فكرة تجر الى اليأس او تؤدي الى الخور او تسوق الى الكسل وان انتشار هذه العقيدة والتحقق بها في صدر الاسلام كان سر نجاح وتقدم الصحابة والتابعين لهم فعار على الابناء ان ينحرفوا عن الجادة التي سار عليها الآباء واشنع العار ان يتخلفوا عنهم ولا يتوصلوا الى سؤددهم في الدنيا ولربما انهم لايلتقون بهم في الاخرى ، ولم يعلموا ان اول الواجبات عليهم ان يقتفوا آثارهم ولو من قبيل التجربة كما جربوا تقليد اعدائهم في السير وراءهم مرات عديدة فباؤوا بالخزي والخسران ، واعني بالآباء الصحابة الكرام والسلف الصالح لا آباءنا الذين عودونا على الجمود والجبن وخور العزيمة والتهول من كل صغير فورثنا عنهم كل الاخلاق الساقطة واعتبرناها

هي الدين بعينه حتى انا لايسوغ لنا نقد الخرافات بوجه من الوجوه ولا نبحث عن الاحكام وان كانت واضحة البطلان بل اصبحنا نعتقد ان البحث عنها ، في غير الرضا عنها والافتخار بها ، جريمة لاتغتفر . فلا شك في ان هؤلاء الآباء هم الذين مهدوا للاعداء سبل الاستعمار وكانوا سبب تثبيت اقدامهم في البلاد بما اورثوا الابناء من لزوم الاعتماد عليهم والثقة بعهودهم واطراء معاملاتهم بالمدح والثناء الى ان اقنعوهم فقبلوا عن طيبة نفس وجهل بالامر وعاقبته ان يضعوا بانفسهم في اعناقهم نير الاستعباد ، فكان ماوصلنا اليه اليوم ان استعبدنا العدو واستعمر بلداننا وتصرف في شؤننا الدينية والدنيوية واعتبرنا عبيداً ارقاء ولا يزال كثير من الشعب العربي ـ ركن الاسلام الاعظم ـ ممن ينتمون للدين الاسلامي ينصرون العدو ويشدون ازره ويبذلون ارواحهم في سبيل بقاء حكمه ويسعون جهدهم لتمكين مخالبه في جسم الامة المسكينة طمعاً في شيء زهيد او امر موهوم .

والاغرب من هذا انا نرى كثيراً منهم ينتسبون للعلم والبعض لطريقة الصوفية فيعتمد الاهليون على فتوى الاول في دينهم ويتبركون بتقبيل يد الثاني ويطلبون دعاءه والامة بمجموعها ذاهلة عن هذا لاتحاسبهم ولا تريهم جزاء يعتبر به غيرهم فيرتدع عن تقويض بناء الدين العظيم لانهم انتقلت اليهم الهيبة منهم فاصبح الطعن فيهم طعناً في العلم والولاية ولم يعلموا ان هؤلاء بعيدون عن العلم لان جهلهم جهل مركب وبعيدون عن الولاية لانهم تولوا اعداء الله قال تعالى : «ومن يتولهم منكم فانه منهم » ـ ٥١ ـ سورة المائدة .

ولكنا ورثنا عن آبائنا ان الخوض في هذا لايجوز فوقفنا دون ذلك وتعودنا على تقديس الباطل فلم تشمئز منه نفوسنا وظننا انه الحق لانا اعرضنا عن كتاب الله تعالى ولم نقرأه بتدبر بل لاجل مجرد التلاوة من غير ان نفكر في معانيه وما يشتمل عليه من الحكم والمواعظ والقصص بل نجتهد في تحسين الصوت وجعله بمثابة اغاني وان الغاية منه انه قسم من الموسيقى للاحياء على ان يتلى على الاموات عند قبورهم ايام الوفاة والاعياد ونحو ذلك لان البحث في معانيه لايجوز الا للجامدين الذين لايستعملون ذهنهم بشيء نافع او لاعوانهم الذين باعوا الدين بعرض زائل واستكانوا للذلة والخضوع والدناءة اذا كانت تكفل لكبارهم رغد العيش ولصغارهم كسرة يسد بها رمقه وغاب عن ذهنهم ان هذا بريء منه الدين

كان المسلمون في صدر الاسلام يسمون العالم قارئاً بمعنى انه قرأ كتاب الله تعالى وفهم معانيه ولقد انزله الله ليتدبر الناس آياته ليؤمنوا به قال تعالى : « كتاب انزلناه اليك مبارك ليدبروا آياته وليتذكر اولو الالباب » ـ ٢٩ ـ سورة ص، والا كان التكليف بالايمان فوق الوسع وقد قال الله تعالى : « لايكلف الله نفساً الا وسعها » ـ ٢٨٦ ـ سورة البقرة وكانوا لاجل الآية الواحدة والاطلاع على معانيها وفهمها يرحلون الايام الطوال وان عمر بن الخطاب لما سأل شيوخ بدر عن معنى اذا جاء نصر الله والفتح ولم يعرفوا الجواب وعرفه عبد الله بن عباس قدمه عليهم وهو يافع وهم شيوخ الاسلام والمشهود لهم بانهم من اهل الجنة وكان النزاع بين الصحابة او التابعين في الدين لايرفعه الا آية من كتاب الله

تعالى او حديث من سنة رسول الله (ﷺ) اما نحن فاعرضنا عن ذلك كله ، وغاية ماعرفناه تقديس العادات اذا مر عليها زمن طويل واتباع البدع والاعراض عن كتاب الله تعالى وسنة رسوله ، والمفاخرة بآبائنا الاقدمين وتاريخهم الزاهر في حين انا لايحق لنا ان نفاخر بالماضي القديم وليست بيننا وبينه صلة تربطنا به فان الذلة التي نحن عليها وسوء الحال الذى نحن فيه من خذلان الحق والخوف من العدو ومن الموت يدعان الآباء ينكرون الابناء ولا يتعرفون عليهم بانهم من سلالتهم وكيف يرضى بنا من لايخاف في سبيل الحق لومة لائم ويبذل جهده ليموت شهيداً في سبيل الله تعالى وكان يقتل اباه وابنه واخاه اذا رأى منه عداوة للدين الاسلامي ؟ ونحن لانهتم بالدين الابمجرد الانتساب اليه وانا نتقبل احكامه بصورة سطحية ونحورها على حسب مطامعنا وعاداتنا وهوى نفوسنا ، ولذلك نرضى بالذلة والخضوع اللذين لايبيحهما الاسلام لمؤمن اما الخوف من الاعداء فانه علامة النفاق قال الله تعالى :

« يحلفون بالله انهم لمنكم وما هم منكم ولكنهم قوم يفرقون ، لو يجدون ملجأ او مغارات او مدخلا لولوا اليه وهم يجمحون » ـ ٥٧ ـ سورة التوبة .

وكان الاجدر بنا ان نتخلى عن هذه الرذائل ونتحلى بالفضائل التي جاء بها الدين الاسلامي ـ وذكرنا قسماً منها ـ ولكننا شحطنا عن مهيع السلامة وشارع النجاح وملنا الى الخمول والكسل في حين ان من اراد الحق وولوج المعابر الموصلة اليه فالطريق واضح مستقيم والحياة احقر من

ان تصد المؤمن عن الجهاد في سبيل الله ، وان اشنع الامراض واشدها فتكاً في جسم الامة الاسلامية هي المجاملة وزعم التعاون مع اعداء الله تعالى والخوف من انقلاب الامر قال تعالى :

« فترى الذين في قلوبهم مرض يسارعون فيهم يقولون نخشى ان تصيبنا دائرة فعسى الله ان يأتي بالفتح او أمر من عنده فيصبحوا على ما اسروا في انفسهم نادمين » ـ ٥٢ ـ سورة المائدة .

فالذين يقولون من المسلمين نحن نعلن المعاونة مع الكفار خشية منهم ومنفعة للمسلمين ويتوددون اليهم باذية المسلمين هم كاذبون في دعوى الاسلام والايمان وانما هم مندفعون بنفاق في قولهم بدليل قول الله تعالى في في آخر سورة المجادلة :

« لاتجد قوماً يؤمنون بالله واليوم الآخر يوادون من حاد الله ورسوله ولو كانوا آباءهم او ابناءهم او اخوانهم او عشيرتهم اولئك كتب في قلوبهم الايمان وايدهم بروح منه ويدخلهم جنات تجري من تحتها الانهار خالدين فيها رضي الله عنهم ورضوا عنه اولئك حزب الله الا ان حزب الله هم المفلحون »

موجز الأخلاق المحمدية

محاضرة ألقاها مؤلفها السيد محمد سعيد العرفي

في بلدته مدينة دير الزور قاعدة وادي الفرات

ليلة الاثنين ٢ جمادى الأولى سنة ١٣٥٠

الموافق ١٤ ايلول سنة ١٩٣١

في نادي الفرات الأدبي

بسم الله الرحمن الرحيم

ايها السادة

في هذه الساعة القصيرة لا استطيع الاعراب عن بعض فوائد العلم الغزيرة فكل ماترونه من صنايع وعمران وادوات ومعامل وعقاقير واسلحة متنوعة وبواخر وبوارج وقطارات وسيارات وطيارات ومناطيد وغير ذلك فانه جزء من ثمار العلم الكثيرة ، غير ان الذي نقوله الآن وهو الصواب : مهما بلغ العلم من تقدم وايجاد آثار عظيمة من مخترعات واعمال غيرت معالم المدنيات السابقة وبدلت وجه الارض في مادياتها فانه لا يوصل الى السعادة ولا يؤدي الى الثمرة المطلوبة من الحياة الا بكمال الاخلاق وتقويم المعوج منها فان انتشار الاخلاق الفاضلة رمز تقدم الامة والوسيلة العظمى لانتشالها من هوة السقوط وبؤرة الانحلال والاضمحلال .

وقد يكون العلم وسيلة للشر اذا نجمت عنه قوة عظيمة صادفت في نفس تلك القوى الامارة هوى مطاعا واخلاقا شرسة ، اما الاخلاق الكاملة فانها لا تكون الا طريقا يوصل الى الخير والسعادة .

واذا ما امعنا النظر في سبب سقوط الدول وسر ضعف الامم نجده ناشئاً عن تفشي الاخلاق المنحطة فترى الوهن يحصل للشعوب ابان استفحال العلم وتقدمه ولكن عند سقوط الاخلاق لان العلم لا يستطيع

ان يقوم بحفظ كيان الامة اذا لم تشد ازره الاخلاق العالية المجيدة .
لذلك نجد ان الانبياء جميعهم وارباب الشرائع من الرسل كلهم ما بعث
واحد منهم الا بتوحيد الباري وتعميم الاخلاق الكريمة لان مما لا
نزاع فيه لدى علماء الاجتماع ان الامة على قدر تمسكها بالاخلاق العالية
ومحافظتها عليها تبقى سيطرتها مصونة وحياتها دائمة وهكذا الشرايع
يبقى المتمسكون بها في عز ومنعة حتى اذا انتهى الامد الصالحة له تلك
الشريعة تغيرت اخلاق المنتمين اليها فبعث الله رسولا آخر يهدي الى
الحق ويدعو الى مكارم الاخلاق الى ان كان آخرهم محمد ابن عبد الله
صلوات الله وسلامه عليه وعلى آله مكملا للشرائع السالفة ومتمما لمكارم الاخلاق
ولذا كانت شريعته صالحة للبقاء والخلود فلا يطرأ عليها نسخ ولا تبديل
قال الله تعالى : انا نحن نزلنا الذكر وانا له لحافظون .

وبما ان حياة الشعوب وعمران البلاد وتقدم الامم تكون بالاخلاق
الكاملة ـ كما قدمنا ـ فاحرى بنا ونحن في اشد حالات الضعف
واصعب انواع الذلة والاضمحلال ان ندرس اخلاق المشرعين الذين
قلبوا نظام العالم وبدلوا معوجه بمستقيم والعداء بالمحبة والشقاق بالالفة
فكانوا سبب كل من اتبعهم بصدق او سلك طريقهم القويم .

ولما كان استيعاب ذلك ليس بالامر الهين فانا الان نتكلم على حياة سيد
الرسل وخاتمهم المبعوث رحمة للعالمين سيدنا محمد (ﷺ) فان في ذلك
كفاية عن الكلام على اخلاق غيره من الانبياء والرسل لانه الفرد الكامل
من بينهم خَلْقا وخُلُقا والقائل « بعثت لاتمم مكارم الاخلاق » كما رواه

مالك في موطأه والقائل «خيار كم احاسنكم اخلاقا» رواه احمد والبخاري ومسلم والترمذي ، والموصوف بصورة اجمالية بما اورده القاضي عياض في الشفاء عن ابن ابي هالة وغيره فقال :

كان رسول الله (ﷺ) يؤلف ولا ينفر ويكرم كريم كل قوم ويوليه عليهم ويحذر الناس ويحترس منهم من غير ان يطوي عن احد منهم بشره ولا خلقه ويتفقد اصحابه ويعطي كل جلسائه نصيبه لايحسب جليسه ان احداً اكرم عليه منه من جالسه او قاربه لحاجة صابره حتى يكون هو المنصرف عنه ومن سأله حاجة لم يرده الا بها او بميسور من القول قد وسع الناس خلقه وبسطه فصار لهم اباً وصاروا عنده في الحق سواءً ، وكان دائم البشر سهل الخلق لين الجانب ليس بفظ ولا غليظ ولا صخاب ولا فحاش ولا عياب ولا مداح يتغافل عما لا يشتهي ولا يؤيس منه فكان كما قال الله تعالى « فبما رحمة من الله لنت لهم ولو كنت فظاً غليظ القلب لانفضوا من حولك » وكان يجيب من دعاه ويقبل الهدية ولو كانت كراعاً ويكافئ عليها ، قال انس خدمت رسول الله (ص) عشر سنين فما قال لي اف قط وما قال لشيء صنعته لم صنعته ؟ ولا لشيء تركته لم تركته ؟ وكان يمازح اصحابه ويخالطهم ويحادثهم ويداعب صبيانهم ويجلسهم في حجره - حتى لقد بال في حجره خمسة منهم - ويجيب دعوة الحر والعبد والامة والمسكين ويعود المرضى في اقصى المدينة ويقبل عذر المعتذر ، وقال انس : ما التقم احد اذن رسول الله (ص) فينحي رأسه حتى يكون الرجل هو الذي ينحي رأسه ، وما اخذ احد بيده فيرسل يده حتى يرسلها الآخر ، وكان

يبدأ من لقيه بالسلام ويبدأ اصحابه بالمصافحة ولم ير قط ماداً رجليه بين اصحابه حتى يضيق بهما على احد، يكرم من دخل عليه وربما بسط له ثوبه ويؤثره بالوسادة التي تحته ويعزم عليه في الجلوس عليها ان ابى ، ويكني اصحابه ويدعوهم باحب اسمائهم تكرمة لهم ولا يقطع على احد حديثه حتى يتجوز فيقطعه بنهي او قيام ، و كان لايجلس اليه احد وهو يصلي الا خفف صلاته وسأله عن حاجته فاذا فرغ عاد الى صلاته ، و كان اكثر الناس تبسماً واطيبهم نفساً مالم ينزل عليه قرآن او يعظ او يخطب اه

هذا بعض من اخلاق رسول الله (ﷺ) بصورة اجمالية مختصرة ولو فصلناها لبلغت المجلدات العديدة و لكنها على سبيل الاختصار نشير الى بعض منها فنقول :

ومن اخلاقه

الامانة والصدق

مما عرف به رسول الله (ﷺ) قبل النبوة الامانة فكان يسمى الامين وان قريشاً لما بنت الكعبة و كان له من العمر خمس وثلاثون سنة تنازعوا فيمن يضع الحجر الاسود ثم حكموا اول داخل من باب بني شيبة فكان رسول الله اول داخل فقالت قريش : «هذا محمد هذا الامين و كلنا يرضاه» ولا زالت قريش تعترف له بالامانة والصدق قبل النبوة و بعدها فكانوا في الجاهلية يتحاكمون اليه ، وقال له ابو جهل « انا لانكذبك ولكنا نكذب بما جئت به ، واعترف ايضاً يوم بدر للاخنس بن شريق

سيد بني زهرة قائلاً له : ماجربنا على محمد الكذب فان محمداً صادق و كنا نسميه الامين ولكن اذا كانت في بني هاشم الرفادة والسقاية ثم تكون فيهم النبوة ماذا يكون لبني مخزوم ؟ كذا في الحلبية وغيرها .

ولقد خاصمه الكفار بعد نبوته ودعوته الخلق الى دين الله ومع هذا

فكانوا يضعون عنده الامانات حتى اضطر يوم الهجرة ان يبقى علي بن ابي طالب نائباً عنه يؤدي للناس اماناتهم وودائعهم كما في سيرة ابن هشام ولم يمنعهم ذلك الانكار والتعدي عليه وعلى اصحابه ان يستودعوه مايعز عليهم اعترافاً منهم بصدقه وامانته

وهذا نموذج من خلق رسول الله (ﷺ) يجب على الامة ان تقتدي به وعلى المسلم ان يحتفظ في امانته لاعدى اعاديه وان لاتكون تلك المشاحنات والمخاصمات والحزازات سبباً لاستباحة الخيانة التي لاتجتمع مع الايمان في قلب واحد لان عنوان الايمان الصحيح الامانة بل هي الجبلة التي فطر عليها رسول الله (ﷺ) حتى كانت خلقاً له معترفاً به من اعدائه فلقد كان موضع ثقتهم يستودعون عنده ماعز عليهم حتى في الزمن الذي ينازعونه في نشر الدين الذي بعثه الله به بسبب انهم رأوه خلاف المألوف من العادات الموروثة لهم عن آبائهم لان القاعدة الجارية ان كل جديد لابد له من مقاومة وان كان حقاً جلياً واضحاً .

* * *

ومن اخلاقه:

شجاعته المادية والمعنوية

لقد صبر رسول الله (ﷺ) على اذى قريش ثلاثة عشر عاماً هو في وسطهم يدعوهم الى الله تعالى وهم يقابلونه بالاساءة اليه والى اصحابه حتى ان كثيراً منهم مات في العذاب كياسر ابي عمار وسمية امه ولكن ذلك لم يكن ليصده او ليوهن من عزمه المتين بل قد كان صابراً على انواع الاذى متحملا له محتسباً له في سبيل الله تعالى وهم يزدادون عتواً وجوراً وهو يزداد حزماً وثباتاً. فأدموا كعبيه اذ قاموا له صفين يرجمونه بالحجارة عند ماذهب الى الطائف ولم يخرج عن دائرة الاعتدال

وهو ذلك الشجاع الذي تشاجر في طفولته مع ابي جهل بن هشام على مائدة عبد الله بن جدعان فكسر رجله، وصارع في شبابه ركانة الذي كان اقوى شاب في قريش فصرعه.

وكان اصحابه بعد الهجرة يتقون به في الحرب العدو بشهادة ليث الله الغالب واشجع الصحابة علي بن ابي طالب حيث يقول: كنا اذا اشتد البأس واحمرت الحدق اتقينا برسول الله العدو فما يكون احد اقرب الى العدو منه ولقد رأيتنا يوم بدر ونحن نلوذ بالنبي (ﷺ) وهو اقربنا الى العدو وكان من اشد الناس يومئذ بأساً.

ولما اصيب اصحابه يوم أحد كان وحده مبارزاً لجيش قريش كله فقد نقل ابن الاثير في اسد الغابة ان علياً قال لما اشيع ان محمداً قد قتل فتشت عليه بين القتلى فلم اجده لان رسول الله لاينهزم فقلت قد غضب

الله علينا ورفع نبيه اليه فلا خير في الحياة بعده فكسرت جفن سيفي ثم هجمت على قريش فافرجوا لي فوجدت رسول الله يقاتلهم وحده اه .

وفي تلك الوقعة قتل بنفسه بطل قريش ابي بن خلف ضربه بحربة فارداه قتيلا، ولما انتهت الحرب انتدب من اصحابه الذين حضروا الحرب سبعين رجلاً فلحق قريشاً الى حمراء الاسد وبقي هناك عدة ايام غير مبال بجيش قريش الذي كان يزيد على ثلاثة آلاف مقاتل وقد ذاقوا لذة النصر فلم يبال بهم ولا بجمعهم .

وفي العام الآتي ذهب الى بدر الصغرى ايفاءً لوعيده ابا سفيان فبقي على ماء بدر ثمانية ايام وخذل الله قريشاً فانهم ذهبوا يوماً وعادوا فسمي جيشهم جيش السويق .

وسأل رجل البراء بن عازب قائلا : افررتم يوم حنين عن رسول الله (ص) ؟ فقال . لكن رسول الله لم يفر ، بل كان راكباً بغلته البيضاء وابو سفيان بن الحارث بن عبد المطلب اخذ بلجامها والنبي (ص) يقول :

انا النبي لا كذب انا ابن عبد المطلب .

معلناً عن نفسه في ميدان الحرب وعند انكسار جيشه وذلك منتهى الشجاعة باظهاره عدم المبالاة بجيش هوازن العظيم .

وعن انس قال : كان النبي (ص) احسن الناس واجود الناس واشجع الناس ولقد فزع اهل المدينة ليلة فانطلق اناس قبل الصوت فتلقاهم رسول الله (ص) راجعاً قد سبقهم الى الصوت واستبرأ الخبر على فرس لأبي طلحة عري والسيف في عنقه وهو يقول : لن تراعوا

وقال عمران بن حصين : مالقي رسول الله (ص) كبيسة الا كان

اول من يضرب ، وعن جابر بن عبد الله لما قفلت الصحابة من غزوة ذات الرقاع ادركتهم القائلة في واد كثير العقاة فنزل رسول الله (ص) تحت سمرة فعلق بها سيفه فنمنا نومة ثم اذا رسول الله يدعونا فجئناه فاذا عنده اعرابي جالس فقال رسول الله :ان هذا اخترط سيفي وانا نائم فاستيقظت وهو في يده صلتا فقال لي من يمنعك مني ؟ قلت الله ، فسقط السيف من يده فاخذته فقلت من يمنعك مني ؟ فقال كن خير اخذ ، فتركه النبي (ص) وعفا عنه فجاء الى قومه فقال جئتكم من عند خير الناس رواه البخارى ومسلم .

. . .

ومن اخلاقه :

الحلم والعفو

اخرج مسلم في صحيحه عن عائشة قالت : ماضرب رسول الله شيئاً قط بيده ولا امرأة ولا خادماً الا ان يجاهد في سبيل الله وما نيل منه شيء فينتقم من صاحبه الا ان ينتهك شيء من محارم الله فينتقم لله .

وعن أنس كنت امشي مع النبي (ص) وعليه برد نجراني غليظ الحاشية فادركه اعرابي فجبذه بردائه جبذة فنظرت الى صفحة عاتقه وقد اثرت فيه حاشية البرد من شدة جبذته ثم قال يامحمد مر لي من مال الله الذي عندك فالتفت اليه فضحك ثم امر له بعطاء ، رواه البخاري ومسلم .

ولما اسر يوم بدر سبعين رجلا من عظماء قريش عفا عنهم ورضي

بالفداء ، وشج وجهه يوم أحد و كسرت رباعيته فشق ذلك على اصحابه كثيراً وقالوا لو دعوت عليهم فقال :«اني لم ابعث لعانا ولكني بعثت داعياً ورحمة اللهم اهد قومي فانهم لا يعلمون » متفق عليه .

ولما وضعت اليهودية السم في الشاة عفا عنها ولم ينتقم منها ، وجيء اليه برجل فقيل : هذا اراد ان يقتلك فقال له : لن تراع لن تراع ولو اردت ذلك لم تسلط عليّ وعفا عنه . وجاءه زيد بن سفته قبل اسلامه يتقاضاه ديناً عليه قبل استحقاقه بثلاث ليال فجبذ ثوبه عن منكبه واخذ بمجامع ثوبه واغلظ له ثم قال : انكم يابني عبد المطلب مطل فانتهره عمر وشدد عليه في القول والنبي (ص) يبتسم ثم قال : انا وهو كنا الى غير هذا احوج منك يا عمر تأمرني بحسن القضاء وتأمره بحسن التقاضي فامر بأن يعطى عشرين صاعاً زيادة عن طلبه فكان ذلك سبب اسلامه رواه في الشفاء

وان قريشاً التي آذته بانواع الاذى لما اظفره الله بهم يوم فتح مكة وحكمه فيهم كانوا لا يشكون في استئصال شأفتهم وابادة خضرائهم فما زاد ان قال : ماتقولون أني فاعل بكم ؟ قالوا خيراً اخ كريم وابن اخ كريم فقال : اقول كما قال اخي يوسف لا تثريب عليكم اليوم يغفر الله لكم وهو ارحم الراحمين اذهبوا فأنتم الطلقاء فعفا عنهم وصفح بعد تلك الجرائم التي بلغت من الكثرة والشدة جانباً عظيماً .

وقال انس : هبط ثمانون رجلا من الفقيم صلاة الصبح ليقتلوا رسول الله (ص) فأخذوا فاعتقهم فانزل الله « وهو الذي كف ايديهم عنكم

وايديكم عنهم ببطن مكة من بعد ان اظفركم عليهم وكان الله بما تعملون بصيراً » سورة الفتح

وعفا عن وحش قاتل حمزة ولم يؤاخذ ابا سفيان بن حرب وزوجه هند وهما اللذان مثلا بحمزة وبغيره من الشهداء وحضا على عداء المسلمين ولم يترك فرصة فيها ضرر على الاسلام الا استعملاها حتى اذا غُلبا على امرهما واعلنا الخضوع عفا عنهما وصفح

ذلك نزر يسير من بحر خضم من بعض حلمه وعفوه اوردناه نموذجا ليعمل به الذين يدعون الاسلام والتمسك به فان لهم في رسول الله احسن قدوة وان التخلق في هذا هو الركن الاعظم الذي بني عليه اصلاح المجتمع الاسلامي الذي افسدته اليوم الاخلاق السيئة فلقد كان التمسك باخلاق رسول الله (ص) هو سر تقدم المسلمين حينما كانت اعلامهم تخفق في المشرق والمغرب وما بينهما . واذا امعنا قليلا وتحدينا الاسباب التي ادت الى ضعفنا فانا نجد ان من اعظمها التقاطع ونبذ الاخلاق التي تدعو الى التآلف والتعاون والتآخي مثل الحلم والعفو .

ومن اخلاقه:

الوفاء ومحافظة العهد

عُرف رسول الله (ص) بالوفاء ومحافظة العهد منذ كان صبياً فقد اخرج ابو داود في سننه عن عبد الله بن ابي الحمساء قال بايعت النبي (ص) قبل ان يبعث وبقيت له بقية فوعدته ان آتيه بها في مكانه فنسيت

فذكرت بعد ثلاث واذا هو في مكانه فقال يافتى لقد شققت عليّ انا ههنا منذ ثلاث انتظرك

وفي الصحيحين وغيرهما كان رسول الله (ص) يذبح الشاة فيهديها الى خلائل خديجة بعد وفاتها ، واستأذنت عليه اختها بعد ذلك فارتاح اليها ، ودخلت عليه امرأة فهش لها واحسن السؤال عنها فلما خرجت قال انها كانت تأتينا ايام خديجة وان حسن العهد من الايمان ، ووصفه بعضهم فقال : كان يصل ذوي رحمه من غير ان يؤثرهم على من هو افضل منهم .

وجاء وفد النجاشي من الحبشة فقام يخدمهم بنفسه فقال له اصحابه نحن نكفيك فقال « انهم كانوا لاصحابنا مكرمين واني احب ان اكافئهم » .

وهذا منتهى الوفاء بالعهد فقد صبر ثلاث ليال ينتظر الشخص الذي وعده متحملاً هذه المشقة قبل ان تأتيه النبوة اشارة الى مالوفاء العهد من قيمة ثمينة وان النفوس الكاملة يجب ان تكون مجبولة على العمل به من غير سائق يدفعها غير صوت الضمير والحس الروحاني . فينبغي لكل عاقل ان يتخلق بالوفاء بالعهد لان استحسانه امر طبعي تدركه النفوس الطيبة لاول مرة فضلا عن ان الشرايع قد اتت بتوكيد التخلق به ووجوب العمل به .

ومما يشمله الوفاء بالعهد المحافظة على الحقوق السابقة وان يكون القدم سبباً لتوكيد تلك الحقوق في غياب الصديق وفي حضوره فان

وفاة خديجة ام المؤمنين لم يكن حائلا دون خليلاتها وصديقاتها ان ينلن سهماً وافراً من تلك الصداقة القديمة ، وان غياب النجاشي ملك الحبشة لم يكن مانعاً دون اكرام رسول الله بنفسه لوفد الحبشة مع طلب الصحابة ان يؤدوا هذه الخدمة ليعلمهم لزوم مكافأة الجميل باحسن منه ، وهذا بلا شك من الاسباب التي كانت داعية الى سرعة انتشار الاسلام واعتناق الناس له ودخولهم في دين الله افواجاً .

فهلا تأسى بذلك الذين يزعمون وراثة رسول الله (ص) من العلماء والذين يدعون انهم من آله الطاهرين والذين يقولون انهم له متبعون غير مبتدعين محبون له واليه مخلصون فالله يقول « لقد كان لكم في رسول الله اسوة حسنة »

ومن اخلاقه

الانبساط للناس

كان رسول الله (ﷺ) لايجب ان يجاهر احداً بسوء فهو كما وصفه ابو سعيد الخدري بقوله : كان رسول الله اشد حياءً من العذراء في خدرها فاذا رأى شيئاً يكرهه عرفناه في وجهه ، وقال انس كان رسول الله يخالطنا حتى يقول لأخ لي صغير « يا ابا عمير مافعل النغير ؟ » لطير كان يلعب به ، وكان يؤتى اليه بالصبي فيضعه في حجره ويحنكه . وبال في حجره خمسة اطفال فكان يدعو بالماء فيرش على البول ولا يغضب ولا تأنف نفسه من ذلك بل يسر بالصبيان ويدعو لهم بالبركة .

وقد بلغ من انبساطه انه كان يسامح الصغار في العابهم قالت عائشة : كان لي صواحب يلعبن معي فكان رسول الله اذا دخل يتقمعن منه فيسربهن الي فيلعبن معي .

كل ذلك ليعلمنا بافعاله واحواله كمال الخلق وحسن المسايرة والتسامح لما ينجم عن ذلك من الالفة والمحبة فانهما اذا انتشرا في امة قويت شكيمتها وصلبت شوكتها وعظم شأنها وازدادت عزاً وسؤدداً فان الفظ الغليظ تنفر منه الناس ولا تريد الاختلاط به في حين ان الانسان مدني بالطبع قال تعالى لنبيه : «ولو كنت فظاً غليظ القلب لانفضوا من حولك فاعف عنهم واستغفر لهم وشاورهم في الامر فاذا عزمت فتوكل على الله ان الله يحب المتوكلين » سورة آل عمران ـ ١٥٩

. . .

ومن اخلاقه :

التواضع

كان رسول الله (ﷺ) يجلس حيث انتهى به المجلس حتى يأتي الاعرابي فيقول : ايكم محمد ؟ واورد الطبري في سيرته ان رسول الله (ﷺ) كان في سفر وامر اصحابه باصلاح شاة فقال رجل : يارسول الله علي ذبحها ، وقال آخر : يارسول الله علي سلخها ، وقال آخر يارسول الله علي طبخها ، فقال رسول الله وعلي جمع الحطب . فقالوا يارسول الله انا نكفيك العمل فقال « قد علمت انكم تكفوني ولكن

اكره ان اتميز عليكم وان الله سبحانه وتعالى يكره من عبده ان يراه متميزاً بين اصحابه » .

واخرج ايضاً انه ركب حماراً عريا الى قباء وابو هريرة معه فاراد ان يركبه وهو يمسك برسول الله فيقعان في الارض مرتين ورسول الله لايأبى ان يعرض على ابي هريرة الركوب في الثالثة فأبى ابو هريرة

وروى الترمذي في سننه ان رسول الله (ﷺ) كان يركب الحمار ويردف خلفه وركب يوم قريظة على حمار مخطوم بحبل ليف . وكان يعود المرضى ويشهد الجنائز وحج على رحل رث عليه قطيفة لاتساوي اربعة دراهم فقال : اللهم اجعله حجاً لارياء فيه ولا سمعة وقد كان يومئذ اهدى في حجه مائة بدنة ، وعن البراء قال كان رسول الله ينقل التراب يوم الخندق حتى اغبر بطنه ، كما رواه البخارى في صحيحه ، وشاركهم في الحفر ايضاً ، واردف سلمة بن الاكوع في غزوة ذي قرد حتى دخل المدينة

هذا جزء ضئيل من تواضع رسول الله (ﷺ) تظهر منه حقيقة المؤمن الصادق المتبع لهذه الاخلاق السامية وعندئذ تسهل علينا معرفة دخائل كثيرين ممن ينتمون الى الدين الاسلامي بمجرد الانتساب ويزعمون انهم القادة وعليهم المعول وان الامة مكلفة باتباع اقوالهم وتحمل عجرفتهم وكبريائهم لانهم على دعواهم حماة الشرع وحملة كتاب الله وسنة رسول الله فمن لم يخضع لهم فعبادته هدر ودينه في خطر وعمله وعبادته هباء منثور في حين انهم في منتهى الفظاظة وشراسة الاخلاق وشراهة النفس ودناءة

الطبع وضعف العزيمة وشدة الهلع وقوة الجشع وغاية الجبن ، اما الطمع والغرور والكبرياء والرياء والاعجاب بالنفس فحدث عنها ولا حرج . ولا شك في ان هؤلاء هم النقمة العظمى والمصيبة الكبرى على الاسلام وهم سبب الفساد واداة الخراب ووسيلة الضعف والانحلال ، واذا قارنت بين ماهم عليه وبين ما كان عليه رسول الله (ﷺ) من التواضع والاخلاق الحسنة يسهل عليك ان تعرف نفاقهم وتعلم حقيقة دينهم وعبادتهم الصورية غير منخدع بالمظاهر ولا مغرور بدعاة السوء وانصار الباطل وجنود ابليس واعوان الظلمة وعصبة الاهواء وعضد الاعداء وان تبوأ احدهم اعلا مقام في الاسلام فان رسول الله هو المقياس التام الصحيح فمن كان على سنته متبعاً هديه فهو المؤمن الصادق ومن خالف سبيله فهو الضال الهالك وان خدع الناس بكثرة السائرين على هذه السبل فليست الكثرة حجة على الحق . ولا القلة دليلا على الباطل واننا نحن معاشر المسلمين نسمع لاولي الامر ماداموا على الحق وما داموا لم يصطدموا بكتاب الله ولا بسنة رسول الله الصريحة الثابتة فان عارضوهما فقولهم باطل وان اصروا على رأيهم فهم زنادقة ملاحدة في زي مسلمين قال تعالى : يا ايها الذين آمنوا اطيعوا الله واطيعوا الرسول واولي الامر منكم فان تنازعتم في شيء فردوه الى الله والرسول ان كنتم تؤمنون بالله واليوم الاخر ذلك خير واحسن تأويلا » سورة النساء ـ ٥٨ ـ ٧

* * *

احواله البيتية

كان رسول الله (ﷺ) يعطي الرجل الواحد مائة ناقة واكثر ومع هذا فكان يعيش في بيته عيشة الفقراء جبراً لقلوبهم من الانكسار حتى انه يمضي عليه الشهر والشهران ولا توقد في بيته النار للطعام .

وروى الامام احمد وغيره ان رسول الله (ﷺ) كان يخيط ثوبه ويخصف نعله ويرقع دلوه ويغلي ثوبه ويحلب شاته ويخدم نفسه ويقم البيت ويعقل البعير ويعلف ناضحه ويأكل مع الخادم ويعجن معها ويحمل بضاعته من السوق .

وعن عائشة ان رسول الله اذا خلا في بيته كان ألين الناس بساماً ضحاكا لم ير قط ماداً رجليه بين اصحابه كي لا يضايقهم في المجلس ، وسابقته عائشة فسبقته ثم سابقها فسبقها فقال « هذه بتلك »

وتقدم ان انساً قال خدمت رسول الله عشر سنين ماقال لي اف قط وما قال لشيء صنعته لم صنعته ؟ ولا لشيء تركته لم تركته ؟

ومنتهى الكمال ان تصير الاخلاق الحسنة جبلية لا يطرأ عليها تغيير ولا تبديل فتسوي الحركات والاعمال عند اختلاف الاشخاص والازمان والامكنة فهذا رسول الله (ص) يعامل اهل بيته معاملة الغرباء من وقار وسكينة وتساو في الحقوق والالتفات والاعمال كي يعلم امته كيف يجب ان تنظم الشئون المنزلية ويفهمهم ان المرأة جديرة بان تعامل بالعدل والمساواة ولين الجانب واظهار العواطف الرقيقة والشعور الحساس ويبين

لهم ان الخادم والعبد ينبغي ان يعامل كل منهما معاملة الحر الطليق مادام غير مرتكب اثما .

فاين الذين يعيبون الاسلام بانه يضطهد المرأة ويحتقرها ويعادي الحرية ؟ لاشك في ان دعواهم منبعثة من جهلهم بقواعد الدين الاسلامي او انهم مندفعون بالعداوة له او طمعاً في ترويج وسائل الاستعمار والاستعباد بعد مايعلمون ان رسول الله يسابق زوجه عائشه في سرعة الجري وانه ألين الناس عريكة في بيته كما انه اليهم في غير البيت ولا يعانب خادمه ولا يؤنبه ولا يلومه ويستقبل اهله باسماً غير متكبر ولا مستعظم لان من اعظم انواع التواضع ان يخصف الرجل نعله ويخيط ثوبه ويحلب شاته وفي عمل ذلك اشارة الى ان الكبرياء لاتليق بالبشر لانها صفة من صفات الله تعالى من نازعه فيها قصمه الله تعالى ومن تواضع لله رفعه الله تعالى .

* * *

تواضعه للنساء وغيرهن

اخرج النسائي في سننه عن ابن ابي اوفى ان رسول الله (ص) كان لايأنف ان يمشي مع الارملة والمسكين فيقضي له الحاجة وروى البخاري في صحيحه ان كانت الأمة لتأخذ بيد رسول الله فتنطلق به حيث شاءت وجاءته امرأة كان في عقلها شيء فقالت ان لي اليك حاجة فقال : اجلسي في اي سكك المدينة شئت اجلس اليك حتى اقضي حاجتك فخلا معها في بعض الطريق حتى فرغت من حاجتها اه .

ان هذا والله لهو منتهى التواضع وغاية العدل اذ يعامل ضعيف العقل صاحب الحاجة مثل معاملة قوي الادراك ويعامل الارملة والأمة والمسكين مثلما يعامل العظيم والوجيه والزعيم ثم لم يمنعه ذلك ان يحض الناس على التواضع ليهتدي الناس في قوله وفعله .

فروى ابو داود في سننه ان قيلة بنت مخرمة لما رأته في المسجد وهو قاعد القرفصاء ارعدت من الفرق ـ الخوف ـ فقال لها : «مسكينة عليك السكينة وهون عليها حتى اطمأنت وذهب عنها روعها» . وقام بين يديه رجل فأخذته رعدة ومهابة فقال له : « هون عليك فاني لست بملك ولا جبار وانما انا ابن امرأة كانت تأكل القديد بمكة » فنطق الرجل بحاجته فقال رسول الله : « يا ايها الناس اني اوصي اليّ ان تواضعوا الا فتواضعوا حتى لا يبغي احد على احد ولا يفخر احد على احد وكونوا عباد الله اخوانا » وكان يقول : « اني عبد الله ورسوله اجلس كما يجلس العبد وآكل كما يأكل العبد »

هذا مثل من تواضع رسول الله (ص) وقد تأسى به اصحابه الكرام فكانوا كما وصفهم الله تعالى بقوله : « محمد رسول الله والذين معه اشداء على الكفار رحماء بينهم» سورة الفتح . وهذا هو وصف المسلم الحقيقي والمؤمن الصادق الذي قال الله عنه : « فسوف يأتي الله بقوم يحبهم ويحبونه اذلة على المؤمنين اعزة على الكافرين يجاهدون في سبيل الله ولا يخافون لومة لائم » ، فانعكاس الآية اليوم حتى اصبح يصدق علينا قول الشاعر :

سريع الى ابن العم يلطم وجهه وليس الى داعي الندى بسريع

ناشيء عن انعكاس الاخلاق والتمسك بعادات المنافقين التي اخبرنا الله عن بعضها بقوله « واذا رأيتهم تعجبك اجسامهم وان يقولوا تسمع لقولهم كأنهم خشب مسندة يحسبون كل صيحة عليهم هم العدو فاحذرهم قاتلهم الله انى يؤفكون » سورة المنافقون . فان فقدان المسلمين تواضعهم لبعضهم وعدم تساهلهم مع اخوانهم قذف بطبيعة الحال في قلوبهم خوفاً وهيبة من اعدائهم فاورثهم ذلة منهم وصغاراً تجاههم وانقطعت علاقات المحبة الصادقة التي ربطها الاسلام بين المسلمين حتى كأنهم اليوم لم يعلموا ان من اول واجبات المسلم ان يحب لأخيه كما يحب لنفسه وان يكون المؤمن للمؤمن كالبنيان المرصوص يشد بعضه بعضاً . لكن المسلمين اليوم مالوا الى المطامع النفسية والحياة الفردية ولم يكترثوا بواجب الامة والدين ولم يلتفتوا الى ضروريات المصلحة العامة واحبوا الحياة و كرهوا الموت فصدق علينا الحديث الآتي :

روى ابو داود في سننه عن ثوبان مولى رسول الله (ص) انه قال : يوشك ان تداعى عليكم الامم كما تداعى الاكلة الى قصعتها » قال قائل ومن قلة نحن يومئذ ؟ قال « بل انتم يومئذ كثير ولينزعن الله في صدور عدو كم المهابة منكم وليقذفن في قلوبكم الوهن » قال قائل وما الوهن يارسول الله ؟ قال « حب الدنيا و كراهية الموت »

وهذا الحديث لصراحته لايحتاج الى التعليق والتوضيح وهو خير

واعظ لنفوس بقي فيها قليل من الغيرة والشهامة وادمغة فيها قليل من الادراك والدراية ٠ ×

ومن اخلاقه:

الشفقة والرحمة

كان رسول الله (ص) كما وصفه الله بقوله آخر سورة المائدة «عزيز عليه ماعنتم حريص عليكم بالمؤمنين رؤوف رحيم» ولقد كان يجتهد في ازالة كل الامور التي تشق على النفوس او تثقل على الارواح او في رفع الحرج الذي لم يجعل الله منه للاسلام سهماً لولا انهم جعلوا لانفسهم نصيباً وافراً باسم الورع الكاذب والتنطع والاحتياط الباطل على يد علماء السوء بمعاونة الجامدين والبلهاء والعباد الجاهلين واعرضوا عن قول الله تعالى آخر سورة الحج «وما جعل عليكم من حرج» وغاب عن ذهنهم قول الله تعالى «يريد الله بكم اليسر ولا يريد بكم العسر» سورة البقرة ـ ١٨٥ ـ وقول رسول الله (ص): «يسروا ولا تعسروا وبشروا ولا تنفروا» رواه احمد والبخاري ومسلم والنسائي من حديث انس، ولربما انهم لم يقفوا على احوال رسول الله (ص) فلا يعرفون عنه الا انه نبيهم وان آمنوا به واتبعوا دينه لانهم لايسألون عن احواله وسيرته وانما ينظر رجال كل عصر الى من سبقهم فيتعبد الاكثرون منهم وفق قول سمعه من شيخه او رآه في كتاب الله اعلم بحقيقة مؤلفه غير عالم من السنة النبوية الا اسماء كتب فيها حفظها او استحضرها لتجمل خزانته او يتبرك

بها او يتلوها بغير تدبر ولا امعان نظر وانما يريد نيل بركة قراءتها ومنهم من يحتج بالحديث او قسم منه اذا وافق مذهبه واعرض عما خالفه وبعضهم يتحدى الاحاديث الدالة على القدر او التي يطبقها على عدم الكسب وان كانت لاتدل على ذلك كحديث «لو توكلتم على الله حق توكله لرزقكم كما يرزق الطير تغدو خماصاً وتروح بطاناً» فانه دال على وجوب السعي للكسب كالطير الذي لايبقى في وكره وانما يذهب نهاره كله في الكسب، فهذا الحزب يتخذ ذلك وامثاله وسيلة لتعطيل الاعمال المشروعة والاعراض عن الاسباب المادية لتميل الناس الى البطالة ويصبحون اتكاليين كما اصبحنا اليوم ووصلنا الى حال لا اظن غيرها اسوأ منها لأن ساحل النجاة قد بعد عنا كثيراً واحدق بنا الخطر ونحن نرتع ونلعب او نسعى للافساد والاذى والاضرار .

نعود الى الموضوع فنقول كان رسول الله (ﷺ) اذا علم اصحابه الاحكام الإلهية لايوالي لهم الدروس والوعظ فقد تمضي الايام ولا يذكر لهم شيئاً من ذلك يريد ان لاتحصل لاصحابه سآمة ولا ملل ولذلك جعلت الشريعة الاسلامية اداء العبادة على حسب الوسع فمن عجز عن الصلاة قائماً صلى قاعداً ومن عجز عن القعود صلى مضطجعاً ومن فقد الماء تيمم وغير ذلك من انواع التخفيف المختلفة والرخص الشرعية . وفي الصحيح قال ابن مسعود كان رسول الله (ﷺ) يتخولنا بالموعظة مخافة السآمة علينا ، وقد كان يسمع بكاء الصبي فيتجوز في صلاته مخافة ان تفتن امه، ولما آذاه اهل الطائف وكذبه قومه لم يزد على ان دعا لهم بالهداية ورجا منهم

ومن ذريتهم خيرا ، اخرج القاضي عياض في الشفاء ان جبريل عليه السلام اتاه فقال له : ان الله قد سمع قول قومك وما ردوا عليك وقدامر ملك الجبال لتأمره بما شئت فيهم فناداه ملك الجبال وسلم عليه وقال : مرني بما شئت ان شئت اطبق عليهم الاخشبين - جبل مكة وجبل الطائف - فقال النبي (ﷺ) بل ارجو ان يخرج من اصلابهم من يعبد الله وحده ولا يشرك به شيئاً .

هذا هو المثل الاعلى للرحمة والحنان اذ يمتنع ان يدعو على قوم آذوه اشد الايذاء طمعاً في ان يخرج من اصلابهم من يؤمن بالله وحده ويعبده ولهذا قالت عائشة كما في رواية الصحيحين «ماخير رسول الله بين امرين الا اختار ايسرهما » رحمة منه بامته ومخافة ان تشق عليها التكاليف فتهمل واجباتها وفرائضها وتؤدي بها معصية الله الى غضب الله لذلك يختار رسول الله (ﷺ) الاسهل والاخف ليكون مدعاة للتمسك بالحق والثبات عليه والايمان بدين الله عن صدق واخلاص وفيه بيان لنا وتعليم بان المتنطعين لم يكونوا في تشددهم على هدى وصواب من امرهم وانما هم على ضلالة وزيغ عن جادة الحق فان المطلوب عبادة الله تعالى على حسب وسع العبد كما قال جل جلاله : « فاتقوا الله ما استطعتم واسمعوا واطيعوا » سورة التغابن » - ١٦

. . .

ومن اخلاقه :

الكرم

كان رسول الله (ﷺ) يعطي عطاء من لايخشى الفقر فروى الترمذي في سننه انه حمل اليه تسعون الف درهم فوضعت على حصير ثم قام اليها يقسمها فما رد سائلاً حتى فرغ منها وجاءه رجل فقال ما عندي شيء ولكن اتبع عليّ فاذا جاءنا شيء قضيناه فقال له عمر ما كلفك الله مالا تقدر عليه فكره النبي (ﷺ) فقال رجل من الانصار: يارسول الله انفق ولاتخش من ذي العرش اقلالا فتبسم رسول الله وعرف البشر في وجهه وقال «بهذا امرت» وكان ما اعطاه من غنائم حنين قد قوم بخمسمائة الف الف فقد اعطى صفوان بن امية مائة ناقة ثم مئة ثم مئة وفي الشفاء عن انس ان رجلا سأله فاعطاه غنما بين جبلين فرجع الى قومه وقال اسلموا فان محمداً يعطي عطاء من لايخشى الفقر . وذكر عن معوز بن عفراء قال اتيت النبي (ﷺ) بقناع من رطب - يزيد طبقا - واجر زغب - يريد قثاء - فاعطاني ملء كفيه حليا وذهبا وقد كان قبل الاسلام معروفاً بهذه الخصلة لقول خديجة - كما في الصحاح - كلا والله لايضيعك الله ابداً انك لتحمل الكل وتكسب المعدوم وتعين على نوائب الحق . واشترى من جابر جملا فاعطاه الجمل وقيمته بزيادة كما في الصحيحين . ومع هذا الكرم العظيم الذي يدل على الغناء الطائل والثروة الجسيمة فقد قال خادمه انس بن مالك كان لايدخر شيئاً لغد ، ومات ودرعه مرهونة عند يهودي .

هذه نبذة مختصرة جداً من بعض الاخلاق المحمدية اوردناها نموذجاً لمن يدعي محبته او يزعم اتباعه ليتمسك بها ولتكون مقياساً تميز الخبيث من الطيب فان الدين عبارة عن التخلق باخلاق رسول الله والاهتداء بهديه والاقتداء باعماله والامتثال لاقواله والاقتفاء لآثاره وان الايمان لايصح الحكم بثبوته يقيناً الا اذا كان مدعيه طائعاً للاوامر الالهية ، متجنباً مناهيها سالكا الجادة القويمة التي ترك رسول الله المسلمين عليها حين لبى دعوة ربه واهمها التمسك بما اوردنا من الاخلاق كالصدق ووفاء العهد والتواضع والحلم والشجاعة والعفو والرحمة والكرم والعدل .

لقد كتبت المجلدات الضخمة العديدة في الاخلاق المحمدية والسيرة النبوية فان الاندلس قد كتب فيها مايزيد على ثلاثين مجلداً بل ان من المطبوعات التي بايدينا شيئاً كثيراً كشرح الزرقاني على المواهب اللدنية في تسعة مجلدات واحد شروح شمائل الترمذي لعلي القاري في مجلدين وحاشية الباجوري في جزء وسيرة ابن هشام في ثلاثة اجزاء وشرح السهلي المسمى الروض الأنف في مجلدين وسيرة مغلطاء وسيرة نور الدين الحلبي في ثلاثة مجلدات والسيرة النبوية للدحلان وسيرة الخضري وغيرها كشفاء القاضي عياض وشروحه وخلاصة السير للمحب الطبري واما المخطوطة فانها اكثر من ان تحصى كسيرة ابن سيد الناس وسيرة الشامي في نحو عشرة مجلدات المسماة سبيل الهدى والرشاد وغير ذلك .

فاذن لاجدال في ان هذا الموقف القصير لايكفي للالمام في هذا الموضوع الواسع وانما اوردنا هذه العجالة الموجزة بقصد الاتيان بصورة مختصرة

من الاخلاق المحمدية للاسباب التي ذكرناها في اول الموضوع ولكي يقتدي بها من اراد التوفيق والنجاح في دنياه والنجاة والفوز في اخراه كما اهتدى برسول الله اصحابه من بعده فان خير الهدي هدى نبينا محمد وشر الامور محدثاتها وكل محدثة بدعة وكل بدعة ضلالة والمراد من البدع ما يختص منها فيما يتعلق بذات العبادة الواردة في اساس الدين او بما نهى رسول الله عنه اما الشؤون الدنيوية فلا يصح ان يطلق عليها لفظ البدعة ولهذا لاحاجة لتقسيم البدعة الى حسنة وسيئة لان البدعة ماخالفت امر رسول الله روى البخاري ومسلم في صحيحهما ان رسول الله (ص) قال «من احدث في امرنا هذا ما ليس منه فهو رد - وفي رواية - من عمل عملاً ليس عليه امرنا فهو رد» لذلك جعلت الصحابة الكرام سيرة رسول الله (ص) الاساس الذي بنوا عليه اعمالهم وتوسعوا فيما لم ينص عليه وهو مدار الاجتهاد الذي من اصاب فيه فله اجران ومن اخطأ عن حسن نية فله اجر واحد لاجتهاده فشادوا بذلك للاسلام مجداً عظيماً وعزاً خالداً مابرحت آثاره شاهدة بعظمة الاسلام ورفعته وهي للمؤمن المستفيد من عقله باستعماله له خير واعظ وافصح خطيب واجمل ناصح واجمل ذكرى فان الذكرى تنفع المؤمنين.

وفي هذا القدر كفاية ولعلنا عند سنوح الفرصة نعود الى اكمال الموضوع باوسع منه والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته

« الخطأ والصواب »

سطر	صحيفة	خطأ	صواب
٦	٥	من التثنية	من التثنية — ٢١
١٢	٥	٢٠	٣٠
١٣	٥	٢١	٣١
١٥	٥	٢٥	٣٥
١٨	٥	على	الى
٢	٦	٢٤	٣٤
١٩	٦	الانسان	الانسان — ١١
٣	٧	فاعطه	فاترك له
٥	٧	انها فرقت	انها اذا فرقت
٧	٧	١٩ الاصحاح السابع عشر	١٨ الاصحاح السادس عشر
٧	٨	٢٨	٣٨
٤	٩	تربية	تربية كاملة ومرتبة
٢٠	١٢	سكينة	سكينته
٣	١٣	المبعوث	والمبعوث
٨	١٤	وابن حيان	وابن حبان
١٦	١٥	وان	فان
١٥	١٨	منته	منة
٨	٢٣	تداعى	كما تداعى
١٤	٢٤	الناس	الباس
١٤	٢٤	ولم يغلوا	ولم يغلوا
١٧	٣٤	آمنوا	آمنوا منكم
١٨	٣٤	وليمكن	وليمكنن

سطر	صحيفة	خطأ	صواب
١٢	٣٥	لانها	لانهما
١٦	٣٧	ممكن	ممكن عادة
١٦	٤١	ليتجلوا	ليتسجلوا
١٧	٤٢	وتعقل	ونصقل
١	٤٧	ولا	ولا أن
١١	٥٠	يوارون	يوادّون
١٤	٥١	تلك القوى	ذلك القوي
١٦	٥٢	سبب	سبباً لسعادة
٢	٥٨	العقاة	العضاه
٦	٥٩	زيد بن سفنة	زيد بن سعنة
١٩	٥٩	التفقيم	التنعيم
٣	٦٠	عن وحش	عن وحشي
٦	٦٦	ويغلي	ويفلي
١٦	٦٩	كثير	كثير ولكنكم غثاء كغثاء السيل
٨	٧٠	اوفي	وفي
١٧	٧١	المختلقة	المختلفة
٦	٧٣	اتبع علي	ابتع علي
٨	٧٣	وعرف الشر	وعرف البشر
١٢	٧٣	معوز	معوذ
١٠	٧٤	الاندلس	الاندلسي
١١	٧٤	الرزقاني	الزرقاني
١٤	٧٤	السهلي	السهيلي
١٤	٧٤	مغلطاء	مغلطاي

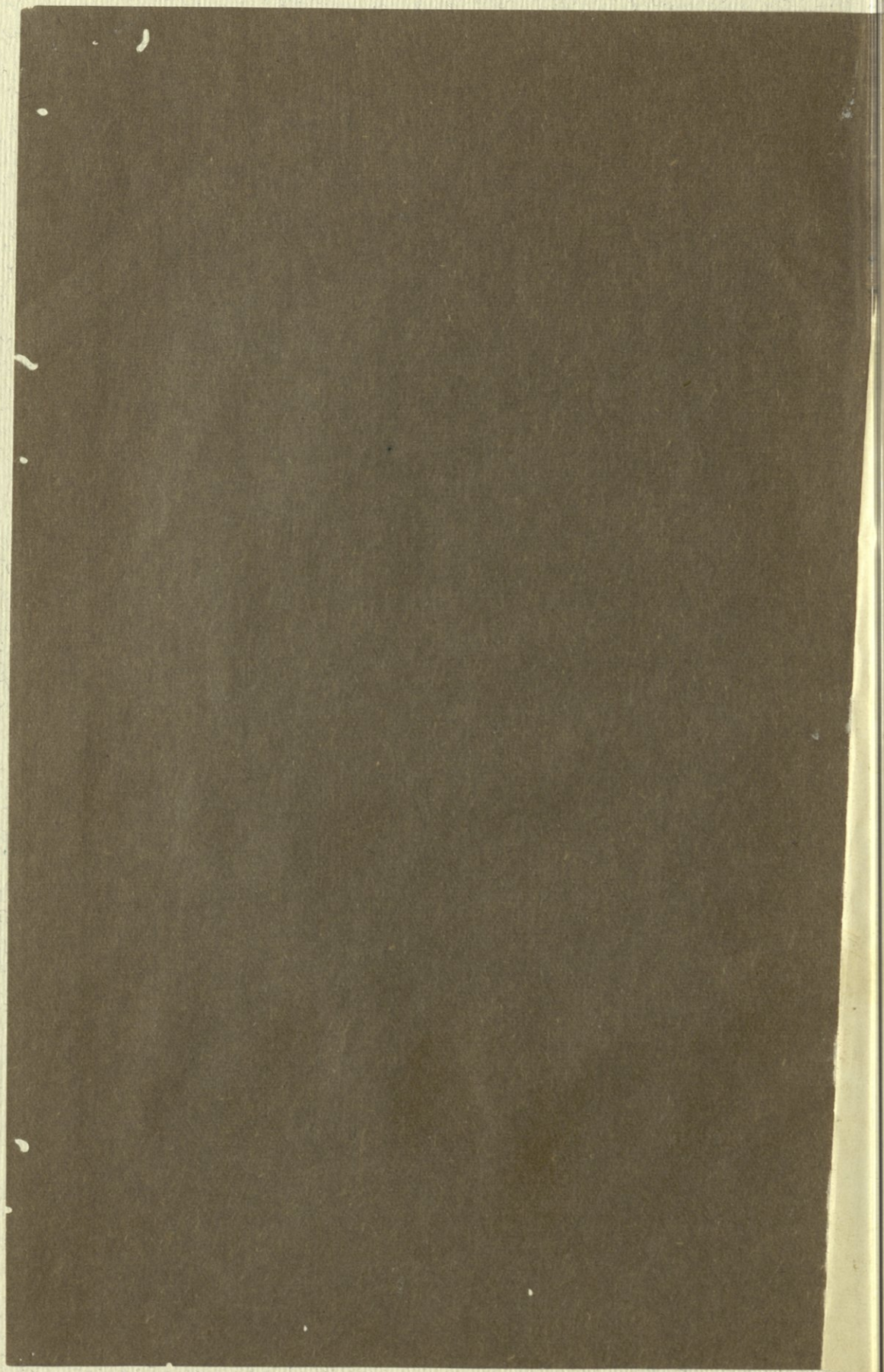

العرفي ،محمد سعيد
بماذا يتقدم المسلمون؟ ...
AMERICAN UNIVERSITY OF BEIRUT LIBRARIES
01005537

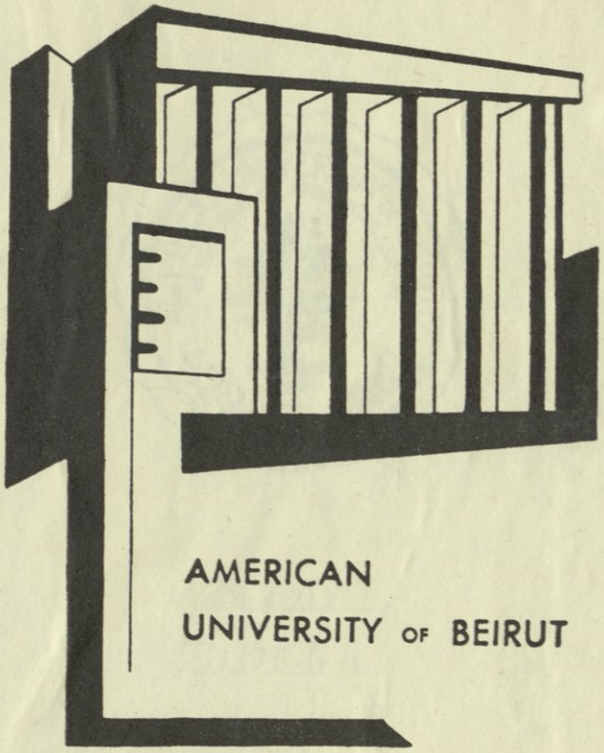

AMERICAN
UNIVERSITY OF BEIRUT

297
U75bA
c.1